دار ابن رشد

قصص

عبد الجبار عدوان

الطبعة الأولى : القاهرة 2017

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي :-978-977-6510

الغلاف : لوحة الفنانة : ريما المزين .. تصميم : هانيبـــال
عمليات الإخراج الداخلي وتنفيذ عمليات الطباعة
بوحدات شركة مدارك الإعلامية

ابن رشد
وكلاء وناشرون
إشراف عام : أحمد إبراهيم
المدير التنفيذي : بيسان عدوان

ibnroshdeg@gmail.com

+2 01003603778 / +2 01000377889

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

جميع المواد الورادة والأفكار تخص كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن أفكار أو توجهات الناشر

عبد الجبار عدوان

قصص

القاهرة ٢٠١٧

□□□ □□□□□□ .indd 3 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 4 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المقدمة

أثناء كتابة بعض هذه القصص كنت أتذكر ابن عمي جهاد حينا وابن عم أبي حسن الشيخ (أبو أحمد) حينا آخر، رحمهما الله. كان جهاد يكبرني بثلاث سنوات وهي ذات أهمية عندما تكون في الإعدادية وهو في الثانوية. ولا أدري بالتحديد لماذا كان جهاد يصر آنذاك على تلقيني رؤيته لمبادئ كتابة القصة القصيرة، ويشرح لي ضرورة الدخول إلى الحدث مباشرة ثم الإفراج عن المعلومات، مع الابتعاد عن الإطالة والإنشاء. أظن أنه كان متأثرا بالروايات البوليسية، بينما كنت أطالع مجلات رسوم الكارتون. أما عمي حسن الشيخ فهو مدرسة أخرى تماما، أبو زيد الهلالي والزير سالم وكليب وديباب ابن غانم والعشرات غيرهم من أبطال الأساطير العربية الذين يطيحون بضربة واحدة عشرة رءوس.

كل ليلة، ومنذ نعومة أظافري وحتى سن الخامسة عشرة، كنت أسهر في المقعد مع رجال القرية، وأضطر لمساعدة والدي، المختار (أبو مطر) رحمه الله، في تقطيع الحطب وإشعال نار القهوة منتظراً حضور عمي، ثم انتظار الانتهاء من تداول الرجال لشؤون ذلك اليوم، حتى نصل لموعد سرد الروايات نثراً وشعراً، وفجأة يتوقف الإرسال وعلى الجميع انتظار التتمة غداً.

هذه القصص بين دفتي هذا الكتاب، ليست خيالية، لكن بعضها أغرب من الخيال، وبعضها الآخر يعج بإثارة من الحياة اليومية، ولا يخلو الأمر من قصص سياسية ومجتمعية وغرام وهيام وخيانة العشاق لبعضهم، وبالطبع حوارات في الخلق والخالق وغير ذلك الكثير من المواضيع . . القاسم المشترك بين هذه القصص هو المؤلف، الذي عايش أو استمع من المصدر لبعض هذه القصص. . وبالطبع ألف بعضها الآخر.

ملقا – الأندلس – يناير 2017

□□□ □□□□□□ .indd 5 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 6 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الخراب

□□□ □□□□□□ .indd 7 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 8 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الانتقام

اجتاز منتصف عربة القطار وهو ينظر إلى وجوه الركاب، ثم احتل مقعداً، وانطلق القطار من ساربروكن في ألمانيا إلى شتراسبورج الفرنسية في طريقة إلى باريس. فتح كتابه لمواصلة الرواية، لكن حديث عربيين لم يشاهد أنهما خلفه تماماً شد انتباهه، وبدا أنهما توقفا عن الحديث أثناء توقف القطار في المحطة ثم استأنفاه.

«وهل يعقل أن الدوافع الشخصية هي التي تسبب هذه الفوضى في المنطقة؟».

«كما قلت لك قبل قليل، بل للنساء أيضاً دور رئيسي فيما حصل». أجاب الثاني الأول محاولاً إقناعه وأضاف من دون انفعال: «الخلاف السوري السعودي بدأ مع خلاف حافظ الأسد وأخيه رفعت الذي انتقل إلى باريس.. تعرف طبعاً أن إحدى زوجات المرحوم الملك عبد الله تكون أخت زوجة رفعت الأسد..».

«وأنت تريد القول إن زوجة رفعت حرضت أختها لتدفع الملك عبد الله لمعاداة نظام حافظ الأسد وولده بشار من بعده؟» كانت نبرة الاستهجان طاغية على سؤال الرجل الذي يبدو من صوته أنه أكبر الاثنين سناً.

«نعم، بالضبط، ولكن هناك أسبابا أخرى شخصية، فقد كان بشار الأسد يقلد القذافي في بهدلة الملك عبد الله وأمراء عرب أثناء اجتماعات القمم العربية». لم يسمع المتحدث أي تعليق فواصل حديثه: «يمكنك مراجعة تلك الاجتماعات على اليوتيوب لترى وتسمع وتستوعب سبب الحقد الذي دفع إلى تجنيد مرتزقة إنجليز رافقوا طواقم إعلامية تقدمت ببث مباشر من حدود مصر حتى وصلوا باب العزيزية في طرابلس ولاحقوا القذافي حتى فعلوا به ما فعلوه». أقفل الراكب الجديد كتابه حتى لا يرى أي منهما أنه عربي لو نظر إلى الخلف أو تحركا إلى عربة

□□□ □□□□□□ .indd 9 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الطعام، أراد أن يتنصت عليهما لغرابة ما يتجادلان حوله.

«ومن نصبوا بعد القذافي؟».

«الفوضى، أصلاً لم يكن في مخططهم إصلاح حال ليبيا، ولكن تخريب بيت القذافي. أما في سوريا فكان مسعاهم تنصيب رفعت بدل ابن أخيه لكن الأمور أفلتت منهم ولا زالوا يمولون ويسلحون المعارضة ويتسببون في خراب سوريا، بل حولوا الأمر إلى صراع طائفي..».

«وانقلب السحر على الساحر».

«هذا صحيح لأن مخططهم كان قصير المدى..» ظن المستمع أن مخططهم كان غبياً وواصل الإنصات. «انضمت إيران إلى سوريا وعززت نظام الأسد، وفتحت للسعودية جبهة توريط في اليمن، بينما واصلت السعودية حرق أسعار النفط لتضر بإيران، لكن ومع زيادة إنفاقها بخرت مدخراتها ولجأت الآن للتقشف والاستدانة وفرض ضرائب على شعبها وعلى الحجاج».

«الأهم من هذا وذاك أن طهران توصلت لاتفاق مع واشنطن والدول الأوروبية، وانضمت روسيا لإيران في دعم سوريا، وها هي الكوارث تتوالى على الدول التي تصدت لسورية». فهم المنصت أن المتحدث يقصد التفجيرات في السعودية وفي فرنسا وتركيا، الأولى مولت وسلحت، الثانية شجعت المرتزقة على السفر إلى سوريا للانضمام للمعارضة وتركيا أردوغان لا تدخر وسعاً في تأزيم الوضع.

«هل لاحظت أن دمار الربيع العربي لم يصب سوى الجمهوريات العربية؟».

«أصاب أيضاً الجمهورية الفرنسية والتركية، وكل دولة تدخلت سلباً يرتد كيدها إلى نحرها بشكل أو بآخر». ساد الصمت وهلة حين دخل القطار في غابة كثيفة، وتنبه المتنصت أن أضواء العربة كانت مشتعلة طوال الرحلة. وضع يده على جيبه بشكل تلقائي حيث التذكرة، وكان قد جهزها مع جواز سفره، ولكنهم قطعوا الحدود الألمانية الفرنسية ولم يسأله أحد للآن عن تذكرة أو عن جواز سفر. فجأة خفت ضوء العربة

□□□ □□□□□□ .indd 10 □□/□□/□□□□ □:□□ □

وطغى الضوء الطبيعي من الخارج حيث امتدت حقول الحبوب على مدى النظر.

«قلت إن كيدهم ارتد لنحرهم، هل تعتقد أن لأجهزة الدولة السورية أي دور فيما يحدث في السعودية وفرنسا وتركيا؟».

«إما هكذا أو ربنا ينتقم للغلابة والأيتام..» سمع ضحكة قصيرة من الاثنين وتلاها الصمت حين فتح باب العربة ودخل مفتش التذاكر. قفز ذهن المتنصت إلى سبب الخلاف السعودي القطري في دعم نظام محمد مرسي وعبد الفتاح السيسي، على الرغم من التوافق بين الدوحة والرياض في الشأن الليبي والسوري. عادت الأمور تختلط في ذهنه، فالسعودية وقطر لم تتفقا ضد القذافي ولكن كلا منهما سعى ضده. كذلك بالنسبة لسوريا، فرغم دعم البلدين للمعارضة إلا أن كلا منهما تدعم معارضة معادية للأخرى وهذا ما أعاق اتفاق المعارضة على بديل يتصدى للنظام، أما في قضية مصر فان إخوانها في ظل مرسي لم يكونوا وهابيين، فدعمهتم قطر ودعمت السعودية السيسي ضدهم ... أفاق المتنصت على توقف القطار فحمل حقيبته وترجل في واحدة من أجمل مدن العالم بينما ذهنة يعج بقضايا متكررة منذ ١٥٠٠ عام.

□□□ □□□□□□ .indd 11 □□/□□/□□□□ □:□□ □

حليب الليل

زحفت الحرب وكوارثها من بلد إلى آخر ومن مدينة لأخرى ومن بيت إلى بيت في تواصل منقطع النظير، ولسنوات طويلة أثرت أيامها في نفسية الناس وأظهرت المستوى الفعلي لثقافة وإنسانية البعض وانحطاط وأنانية الأغلبية. كانت قرية المسرة، وهي في الحجم أقرب إلى مدينة، من المناطق التي حماها الله من الويلات المباشرة على عكس ما يحيط بها من مدن وقرى، وكان سكانها يعرفون رحمة الله بهم ويقدرونها في أقوالهم يوماً بعد الآخر.

أصيبت قرية المضرة، القريبة، بداء الحصار القوي إذ كان فيها مسلحون يعارضون القابلين، فأصر هؤلاء على استسلام أولئك ومنعوا عنهم سبل الحياة، لا ماء ولا كهرباء ولا وقود ولا طعام، فحصلت المجاعة وأكل السكان الفئران ثم القطط وهربت الكلاب من قريتهم طلباً للنجاة. حاول بعض سكان المضرة إقناع المسلحين بالاستسلام أو التسرب خارج القرية رحمة بسكانها الذين انتقلوا لأكل أوراق الشجر، ولكن المسلحين وشيوخهم والمفتي وغيرهم ممن لم تظهر عليهم أعراض الجوع، أخذوا يبشرون الناس بالجنة ويشجبون موقف كل من يرغب في الحياة.

منذ حصار المضرة عاظم سكان المسرة في تخزين ما يقع تحت أيديهم واقتصدوا في طعامهم، وأصبحوا يخزنون كل الزبدة الناتجة عن حليب مواشيهم ويستعملون الحليب المملح القابل للحفظ، لكن مأساة المضرة أجبرتهم على التفكير في طرق لمساعدة الجيران المحاصرين بالسلاح والجوع. هكذا وفي اجتماع لسكان المسرة اقترح المختار أن يتبرع الناس ببعض الحليب يصبونه مساء الخميس في إناء كبير وضع وسط القرية، وقال المختار أنه سيبحث عمن يوصل الحليب للجيران

□□□ □□□□□□ .indd 12 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المحاصرين، وأوضح أن التبرع في الليل لن يكشف هوية المتبرع خوفاً مما قد يحمله المستقبل.

في صباح الجمعة حُمل الوعاء إلى بيت المختار لتفحصه قبل البحث عمن سيحمل محتواه. أزاح المختار الغطاء واستعاذ بالله العلي القدير، فقد شاهد الوعاء مليئاً بالماء الصافي لقد قرر كل متبرع أن يحتفظ بالحليب لنفسه، وظن أن الآخرين سيتبرعون حقاً وبالتالي إذا كان تبرعه ماء فلن يؤثر على كمية الحليب من الآخرين. أخبر المختار الإمام بما جرى وطلب نصيحته. قال الإمام: عليك باستبدال الماء بالحليب من مالك الخاص وإتمام المهمة لتفوز بالحسنات، أما الآخرين فاتركهم لي. عندما حانٍ موعد خطبة الجمعة سأل الإمام المصلين من منهم تبرع بالحليب ليلاً فارتفعت الأيدي، وهنا أقسم الإمام بالله أن أياً منهم لم يتبرع بالحليب، فاحتار القوم مما سمعوا وتمتم بعضهم أن الإمام أصيب في عقله، وقال غيرهم أنه يتحمل وزر اليمين حتى يعفينا من احتمالات المسؤولية والمسائلة في المستقبل إذا جاء من يعتبر دعم جوعى المضرة خيانة تستحق العقاب.

□□□ □□□□□□ .indd 13 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الذل

«قمة الذل أن نترك ديارنا ونلجأ لبلاد بعيدة يقطنها من هم ليسوا من جلدتنا أو ديننا ومع ذلك بعضهم يرحبون بنا، على عكس بلدان أخوتنا في العرق والدين..» قال الإمام للمختار ثم استرجع بعض مقولته مصححاً أن بعض الدول المجاورة والفقيرة تفعل ما بوسعها وهناك جارة استوعبت بمقدار نصف تعداد سكانها.

«أطلب من ربك في كل صلاة أن يكف عنا شر إخوتنا الأغنياء، فهم الذين حرضوا على الاقتتال ودعموا المنشقين وورطوا البلاد في حرب أهلية ثم تركونا ننزف ونتعرض للإهانات والإذلال بكل أنواعه.»

«لا تيأس من رحمه الله يا مختار، أنت متعلم ومثقف ومؤمن بالله.» بعد فترة صمت واستغفار من الإثنين سعى الإمام لتشتيت ذهن المختار وسأله عن أصعب فترات الذل والضياع التي مر بها البشر.

«ربما كان ذل الإيمان أمام العلم هو الأكثر إحراجاً وإيلاما لعزة نفس المؤمنين..» قال المختار بينما فغر الإمام فاه إذ توقع من المختار حديثاً عن الحروب وذل الهزيمة وتأثيراتها على الناس من سلب ونهب واغتصاب وتهجير، لكن المختار تعمق في الإجابه وأكمل: «ربما كان ذلاً عظيماً حين قال العلم إن الأرض كروية وليست مسطحة، وكان هذا حينذاك يعني كفر القائل ومحاكمته وقتله، ولكن في النهاية أقر الجميع أن العلم على حق وأنهم كانوا على باطل. بعد ذلك أذل العلم أهل الإيمان مجدداً حين أثبت أن الأرض ليست محور الكون وأنها هي التي تدور مع غيرها حول الشمس وليس العكس. ولا ننسى أيضاً أن المسيحية اعتبرت القدس مركز العالم جغرافياً، وهذا هراء بالطبع تم التنازل عنه، وهناك من يؤكد الآن أن مكة هي المركز المغناطيسي للعالم

□□□ □□□□□□ .indd 14 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ولم يتعظوا من كل تلك الهزائم. أو فلنقل إن العالم الغربي الذي اقتنع منذ قرون بصحة الإكتشافات العلمية يقفز للأمام قفزاً على كل الصعد ويتفرج علينا الآن كيف نمر زحفاً بالمرحلة التي تخلص منها.. لذلك تراهم قد أصبحوا بنزعة إنسانية تجاه الغير، بينما يذبح الجار عندنا جاره بدعم وتأييد من جاريهما..»

«لكننا وأياهم من خلقة ربنا سبحانه وتعالى، ولا بد من وجود حكمة في هذا الحال.» تدخل الإمام مقاطعاً للمختار الذي ضاقت عيناه وهو يستمع للإمام.

«ما قلته الآن يا شيخ هو جوهر الإهانة الأخرى التي تقبلها الغرب واستجاب بسرعة في تعامله معها للتخلص منها. أنت لا زلت تصدق ما كانوا يصدقونه في الماضي، إن اصل الإنسان سماوي، نزل من فوق قبل أقل من أربعة آلاف سنة. بينما هم اقتنعوا وأقروا نتيجه لإيمانهم بالعلوم، أن أصل الإنسان حيوانياً أرضياً تطور عبر ملايين السنيين، وتفاعلوا عملياً ونفسياً ضمن هذا التغيير فاقتربوا من المفهوم الإنساني بينما نحن نتصرف ضمن المفهوم السماوي كالحيوان المتوحش.. أترى الفارق بين ما تظن أنه الحق وبين الحق ذاته؟» لم يبدو أن الإمام فهم أي شيء، وانشرح صدره حين نظر إلى ساعته لتخبره اقتراب موعد صلاة العصر، فاعتذر من المختار وغادر المكان دون أن يجرؤ على دعوة محادثه لمرافقته إلى الجامع.

□□□ □□□□□□ .indd 15 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الكيد

اقتنع الإمام بأحقية أن يُطلق محمد زوجته صفية، ولأنها على قرابة بعيدة من المختار إتفقا على إبلاغه بالأمر. شرح الإمام نيابة عن محمد ما أُخبر به بأن صفية أصبحت تنفق أموال زوجها حتى لا يدخر ولا يتزوج عليها، واستشهد الإمام أمام المختار بالقرآن، إن كيدهن عظيم.

«من هن ومن قال ذلك؟» استغرب الحضور من سؤال المختار الملم بالقرآن والسنة. أجابه الإمام أن هذا كلام العزيز الحكيم في القرآن. «قد يكون كلام العزيز ولكن الله لم يقل هذا الكلام مطلقاً.» فغرت أفواه الحضور فطلب المختار من الإمام أن يقرأ ما يتعلق بذلك من سورة يوسف.

تعوذ الإمام من الشيطان وسمى باسم الله وقرأ حتى وصل إلى ﴿لَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ أنه من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ.﴾ فأشار المختار له بالتوقف وسأله مَن هو القائل إذا إن كيدكن عظيم؟

«إنه عزيز مصر، الفرعون، هو من قال ذلك كما يخبرنا الله هنا في القرآن.» قال المختار وهو ينظر للحواجب التي رفعت على أوجه الحضور. «زوجة العزيز ولعت حباً وشغفاً بيوسف وراودته فهرب باتجاه الباب فشدت قميصه وقدته. في هذه الأثناء فُتح الباب فإذا بالعزيز يرى ويسمع من زوجته الاتهام ليوسف، وعندما تأمل في الأمر قال إن كيدكن عظيم، فهل كلامه هذا يحلل ويحرم ويشرع؟ القرآن مليء بالقصص والأقوال على لسان الغير فهل يصبح هذا كلام الله ونعتبره تشريعاً؟ ثم إن القصة حدثت من آلاف السنين فكيف تطبق حكمها على هذا العصر؟»

ظن محمد أن المختار يتفلسف حتى يحبط خطة طلاق قريبته، فتشجع وقال: «لكن يا مختار ما تفعله صفية فيه الكثير من الكيد، تنفق

□□□ □□□□□□ .indd 16 □□/□□/□□□□ □:□□ □

مالي حتى لا أستطيع الزواج..»

«الله أحل لك زواج غيرها، والطلاق عند الله هو أبغض الحلال..» قاطع المختار محمد بإشارة من يده وبهذا الحديث وأكمل: «.. في الواقع أنت من تكيد لها. من أين لك المال لتنفقه زوجتك؟ ولماذا تعطيها المال؟ لقد تحايلت على الإمام ودبرتم المكيدة للمسكينة تماما كما كاد أبناء يعقوب لأخوهم يوسف: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ذلك هو كَيد الرجالَ الذين دفع بهمَ الحسد إلى إلقاءَ أخيهمَ في البئرَ بدون طعام أو شراب وكذبوا على والدهم..فأي كيد هو الأشرّ؟ كيد الحب أو كيد القتل؟ أنصحك يا محمد أن تكف عن الكيد، وأن تذهب وزوجتك لطبيب ليقرر أي منكما العاجز عن الإنجاب، أو اصبر كما صبر أيوب، أو يعقوب على الأقل.»

□□□ □□□□□□ .indd 17 □□/□□/□□□□ □:□□ □

العقل أولاً

قرر المختار أن لا يصلي العصر والمغرب بل يدمجهما مع العشاء قبل أن ينام، وأخذ يتذكر ويستعين بالقرآن بحثاً عن كلام لا يعبر عن وجهة نظر الله. فكر أن القرآن نزل على الرسول وأن كل ما فيه صحيح بمعنى أنه حصل، ولكن ليس كل ما فيه يجب إعتباره صالحاً للتشريع. قصص الأولين مثلاً لا يمكن إعتبارها تشريعات، وكل ما ينسب في القرآن للآخرين لا يجب إعتباره كلام الله، وكل ما نعجز عن فهمه يجب أن نؤول الفكر فيه ونقرب فهمه من دون أن يُكفر المؤول إذ من الأفضل أن نحاول الفهم على أن نؤمن بالنص المبهم. تذكر قول الله السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما. هذا نص واضح غير قابل للتأويل، فهو يعادل بين الذكر والأنثى في العقاب الواحد للجرم الواحد. الله عادل لا يخطئ أبداً، والقرآن منزّل من عنده، وبالتالي فاقرار القرآن أن شهادة الأنثيين بشهادة رجل واحد لا بد لها من سبب منطقي مرتبط بالشهادة ذاتها وليس بوزن الأنثى مقابل الذكر، وحتى نعرف السبب يجب الأخذ بالنص الواضح الذي يساوي بين الذكر والأنثى.

ارتاح المختار لهذه الفكرة التي سيقذفها على الإمام وبقية رجال القرية عندما يحضرون لمجلسه لاحتساء القهوة مثل كل ليلة، وأخذ يبحث عن الآيات المحتوية على فعل (قال) أملاً أن يكون معظمها قولاً منسوباً لغير الله. وجد في كل صفحة تكرار لكلمة قال وظن أنها مكررة أكثر من ألف مرة، فالله يقول والشيطان يقول وفرعون يقول ويعقوب ونوح وعيسى وغيرهم يقولون والكفار وعشرات الفئات الأخرى لهم قول أيضاً. أغلق القرآن وأعاد فتحه عشوائياً: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ.﴾ فكر المختار أن هذا القول يمكن أن يفسر بمنع خروج الأخوة سوياً. ثم أغلق الكتاب وأعاد فتحه: «﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

.indd 18

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وكرر المختار فعله بإغلاق وفتح صفحات القرآن عشوائياً وهو يفكر كيف لو اعتبر كل هذا تشريعاً: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَنا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ.﴾

دارت فناجين القهودة السادة على الحضور الكثر الذين جمعهم اقتراب صوت القذف المدفعي. تمنى الإمام أن لا يكون المختار حانقاً عليه حتى الآن بعد أن اتهمه بالكيد مع محمد لطلاق صفية.

«المهم يا شيخ أن تكون استوعبت أن كيد الرجال اشد من كيد النساء، والأهم أن نفهم القرآن حسب العقل وليس تبعاً للنص حتى وإن جهلنا في تفسيره.»

«أنت محق يا مختار ولهذا حين يصعب علينا فهم القرآن نلجأ إلى الحديث والسنة لترسم لنا الطريق..» تمالك المختار غضبه وهو يستمع للإمام.

«الحديث كتب بعد ثلاثمئة سنة من موت الرسول، ومئات الأحاديث غير منطقية وغيرها الكثير فيها شكوك. ثم لماذا تترك الأصل والعقل وتلجأ للفرع.» صمت المختار وهنة ثم سأل الحضور: «إذا وجدنا حكم الحديث يتعارض مع ما ورد في القرآن فهل نصدق الحديث الذي يناسبنا ونترك القرآن؟» نفى الجميع ذلك وانحازوا للقرآن. «إن معظم جرائم العصابات مدعية الجهاد ترتكز على فتاوي تستشهد بأحاديث غير موثقة.» قال المختار وهو ينظر في وجوه الحضور: «هل يبرر القرآن أي جريمة مما يرتكبون يومياً؟» اهتزت الرؤوس بالنفي وسكت الإمام.

«هل سينفعنا أي شئ مما تقول لو لا قدر الله اقترب هؤلاء من قريتنا؟» كان سؤال هذا العجوز يعبر عما يدور في ذهن الرجال الذين لا يرغبون بطرح السؤال أو حتى بالاستماع إلى أي إجابة عما سيكون عليه الوضع إذا اجتاحهم الجراد.

«لو فهمنا ديننا عبر العقل منذ مئات السنين لما وصلنا إلى وضعنا الحالي.» قال المختار ولم يعلق أي منهم إذ انتقل الحديث عن اقتراب القصف إلى مسامعهم، وما العمل إذا وقعت الواقعة.

□□□ □□□□□□ .indd 19 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الحمار

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.» قاطع الإمام حديث المجتمعين في مجلس القرية عندما سمع صوت نهيق الحمار. كانوا يتناقشون حول تقطع وضجيج وأنواع أصوات القذائف التي تصل إلى آذانهم، ويخمنون أين وصلت المعارك.

«هل تظن أنهم يتقدمون مع الشياطين؟» وجه شاب من الحضور سؤاله للإمام.

«ربما..» قال الإمام دون تردد: «فطالما الحمير تنهق فهذا يعني أنها ترى الشياطين، ولا أدرى من برفقتهم الآن.»

«وهل هناك اشيطن من داعش، بالتأكيد الحمير ستنهق إذا رأتهم..» قال المختار ثم نظر إلى الإمام: «نحن هنا في حماية جيشنا ولله الحمد، وإذا اقترب أي من الشياطين سترى ملائكة السوخوي تجعلهم كعصف مأكول، فاطمئن إذا كنت خائفاً.» كان المختار يلمح إلى النوايا الخفية التي يظنها عند الإمام، وأكمل: «لو اقترب غير الجيش من قريتنا سنتحول إلى عبيد أو لاجئين، ولا تظن أنهم سيحترمون مقامك الديني، فأنت كافر مرتد بالنسبة لأولئك الحشاشين، على الرغم من كونهم مثلك يصدقون رؤية الحمير للشياطين والديكة للملائكة.»

«كل المسلمين يصدقون ذلك الحديث النبوي..» قاطع المختار الإمام بإشارة من يده وطلب منه عدم التعميم. «..لكن هذا حديث عن أبي هريرة (إِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الحمير فَتَعَوَّذُوا باللّه مِنَ الشَّيْطان، فأنها رأَتْ شَيْطاناً؛ وَإذا سَمِعْتُمْ صياحَ الدّيَكَة فاسْأَلُوا اللّه مِنْ فَضْلِه فأنَها رأَتْ مَلَكاً) وأنا لم أخترع ذَلك الحَديث.»

«صحيح إنك لم تخترعه ولكن عليك استعمال عقلك، فكل الديكة تصيح عند الفجر، وكل الحمير تنهق طلباً لشئ ما. ثم لماذا يرى الحمار

□□□ □□□□□□ .indd 20 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الشيطان ولا يراه الإنسان أو الحصان. مع ذلك..؟»

«..هذه حكمة الله» قال الإمام بثقة رداً على المختار.

«صاحبك أبو هريرة بالفعل مُحب للحيوانات وكانت هرته لا تفارقه، ولكنه يقول أنه صاحب الرسول ثلاث سنوات فقط، ولدينا الآن أكثر من خمسة آلاف وثلاثمئة حديث يقال أنها موثقة منسوبة إليه، وهناك أقوال بأن أحاديثه فاقت الثلاثين ألفاً، وهو بالطبع لم ينام في حجر الرسول طوال تلك المدة، فهل تظن أن كل ما ينسب إليه صحيح بالفعل؟» صمت المختار ثم أخبر الحضور أن السيدة عائشة شككت في أقوال أبو هريرة حين نسب للرسول أفعالاً كان يفعلها مع زوجاته فنفت عائشة ذلك.

«يعني المختار يقصد أن القرآن الكريم هو مصدر الأحكام وفصل القول ولم يرد فيه شئ عن النهيق وحضور الشيطان، وإنما ورد أن صوته منكر.» قال الشاب الذي تسبب سؤاله بهذا السجال، ثم قرأ على الحضور من هاتفه النقال: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وتحمل أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. إرتفعت الأصوات، منهم من يَقول الله رؤوف رحيم، ومنهم من لاحظ مساواة الله بين الحمير والخيول، وثالث يقول أنه لا يعقل أن يُنسب للرسول قولاً يتناقض مع القرآن. كان الإمام صامتاً منصتاً حتى أشار إليهم بالاستماع فاصغوا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

«وماذا إذن؟» سأل المختار الإمام والحضور: «الله يشبّه جهالة اليهود بجهالة الحمار الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا لا يعني أن الحمار يرى الشيطان فينهق.» وأضاف المختار متبسماً بين تأييد واضح من الحضور: بل إن الله استعمل الحمار آية كما جاء في البقرة: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

□□□ □□□□□□ .indd 21 □□/□□/□□□□ □:□□ □

أوباما المسلم

«ربما هناك اتفاق أميركي روسي على دخول قوات ناتو وقوات دول عربية من تبوك إلى سوريا للتمركز على حدود فلسطين من جنوب لبنان إلى جنوب الأردن..»

«عقلك ضرب يا شيخ» قال المختار مقاطعاً وسط ضحك من بعض الحضور، واهتمام من آخرين طلبوا من المختار إتاحة الفرصة للشيخ ليكمل حديثه.

«..أنا أقول ربما، وهذا يعني أن السعودية رتبت الأمر، وهي بوسعها الإيعاز لداعش لتسكت أو تهاجم أو تعمل ما يتناسب مع ما يخططون..»

«وما الهدف من هذه الخطة يا شيخ؟؟ مضايقة إسرائيل أو الهجوم عليها؟؟»

«دعني أكمل يا مختار» قال الشيخ وردد الحضور على المختار الطلب ذاته.

تحرك الشيخ قليلاً ورتب ساقيه تحت فخذيه ونفخ صدره قليلاً وقال وهو يعدل وضع العمة: «الرئيس أوباما الآن في المرحلة الأخيرة لإدارته، وقد عطله الإسرائيليون وأنصارهم كثيراً في السابق، وربما، أقول ربما، يريد حشد القوات على الحدود والطلب من إسرائيل الانسحاب لحدود ١٩٦٧ على أن تضمن هذه القوات أمنها الذي تدّعي أنه مهدد.» صمت الشيخ وهنة وتمالك المختار نفسه ولم يتدخل بانتظار انتهاء الشيخ الذي أضاف: «تعرفون أن أوباما في الحقيقة مسلم ولكنه إدّعى أنه مسيحي حتى ينجح في الانتخابات، ولكنه كثيراً ما ينسى نفسه ويُظهر أنه بالفعل مسلم، وفرصته الآن التظاهر بالهجوم على داعش في

□□□ □□□□□□ .indd 22 □□/□□/□□□□ □:□□ □

سوريا ليحقق الحل لقضية الشرق الأوسط.» تحولت أنظار المستمعين إلى المختار بأنتظار التعليق.

«أوباما مسلم!!» قال المختار وسرح قليلاً ثم استأنف: «ربما كان مسلماً، ربما على رأي الشيخ. لكن أخبروني أنتم هل هو مسلم سني أو شيعي؟» لم يتلق إجابات وإنما سمع همهمات متضاربة. «إذا كان مسلما فهو بالتأكيد شيعي بدليل تدليله لإيران في عقد صفقة المفاعلات النووية ومخالفته أمنيات إسرائيل وتمنيات الدول العربية السنية وفي مقدمتها السعودية..» اهتزت رؤوس المستمعين بالتأييد فأكمل المختار: «وإذا صدق هذا الرأي فالرئيس الأميركي يُوقع بالسعودية والدول العربية السنية ويغرر بها للتدخل بهدف الإشتباك مع قوات روسيا المتربصه بهم إذا اقتربوا من سوريا. هذا طبعاً معناه نصرة لسوريا وإيران وتوسيع الهلال الشيعي من إيران فالعراق فسوريا ولبنان مع إضعاف وتدمير بل وهزيمة للقوات العربية السنية..»

«يا مختار..» قاطع الشيخ الرواية: «أميركا مشاركة بقواتها مع الناتو والعرب في الزحف، وإذا ضربتهم روسيا فهذا معناه حرب عالمية ثالثة وقصف نووي..»

«صحيح، كلامك في محله، ولكني افترض أن أوباما مسلم شيعي، والدمار التقليدي أو النووي سيكون في بلدان عربية سنية، واذا تطور القصف النووي ووصل إلى الولايات المتحدة فهذا أيضاً مصلحة إيرانية، ويكون أوباما قد أنتقم من السنة ومن الشيطان الأكبر ومهد الطريق لهيمنة إيرانية مدعمة بروسيا النووية في كل الشرق الأوسط، يعني أصاب ثلاثة أو أربعة عصافير في حجر واحد.» ارتفعت الأصوات بالاستنكار والاستغفار وإعلان الإكتفاء بما أصابهم من الدمار والدعاء لله بإصلاح الحال.

□□□ □□□□□□ .indd 23 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ظاهرة صوتية

«وكيف أعرف من سينجح ؟ كلاهما زبالة، واحد عنصري أهبل والأخرى بايعة نفسها لإسرائيل منذ عقود مضت وهي مشاركة في الكوارث التي حلت بنا.»

«إذاً لديك رأي وتتابع ما يجري في واشنطن.» قال لصديقه الصحافي المخضرم الذي اعتكف السياسة والحوارات احتجاجاً على سلبية المواطن والمسئول العربي، الذي لا يقرأ وإن قرأ لا يفهم وإن فهم لا يتصرف ضمن ذلك الفهم، كما يقول عنهم.

«أثناء تقليبي محطات التلفزيون المختارة أعرف طبعاً عن المناقشة بين المرشحين، ولكني غير متابع بالشكل الذي يؤهلني للإفتاء من منهما الذي سيفوز، وبصراحة لا يهمني فكلاهما ضرر علينا كعرب ومسلمين. أما إذا نظرنا إلى القصة من زاوية الشعب الأمريكي الشقيق، فأنا أحسدهم بقدر ما أتحسر على حالنا.» تبسم صديقه إذ أخرجه عن ابتعاده عن التعليقات السياسية. تناول فنجان القهوة ليستدرج صديقه باكمال رأيه. «قد يرى البعض أن المناقشات مهاترات، وأن الحملات الدعائية بهلوانيات، لكن هذه الأساليب توضح للناخب ماهيه المرشح وبالتالي يختار من يناسبه ثم يلتزم الجميع بعد الانتخابات بالنتائج.»

«ونحن لدينا انتخابات..»

«بالله تأكل عنب وتنقطنا بسكوتك..» قاطع صديقه مشيراً إلى طبق العنب بينهما. «إنتخاباتنا، إن وجدت، فهي بدون برامج أو مناقشات، وفي أحسن الحالات هناك وعود جوفاء متكررة. إذا كانت انتخابات رئاسية فهي بمرشح واحد ونتيجة مزيفة مضمونة، وإذا كانت انتخابات برلمانية فهي قبلية وعائلية أو حسب الدفع النقدي لكل صوت، ومع ذلك لدينا أحيانا مرشحين، بل قوائم مرشحة، لا تنال صوت إنتخابي واحد. وأنت تحكي عن انتخابات، أو تريد مقارنة انتخاباتنا بانتخاباتهم.. أشرب قهوة.»

□□□ □□□□□□ .indd 24 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«ماذا ينقصنا عن أجراء حملات انتخابية، محطاتنا الفضائية بالعشرات، وقدراتنا الإنشائية والخطابية لا تُضاهى..»

«.. صحيح فنحن ظاهرة صوتية، ورزقنا الله بكثرة المحطات..» صمت مفكراً إذا كان عليه مواصلة الإنخراط في هذا الموضوع أو تغيير مجرى الحديث لقضية أخرى. خشى أن يجرح شعور صديقه إذا ظن تعاليه فأكمل: «محطاتنا كثيرة ولكن معظمها مثل عدمه، والقلة التي يُقبل عليها المشاهد مسيسة وتخدم مصالح أنظمة بنت حرام. المهم يا صديقي ليس القدرة على الخطب، ولم يعد الآن ينقصنا الحصول على أي معلومة نريد. كنا نظن في الماضي القريب أن مشاكلنا ناتجة عن سوء فهم العالم لنا، وعن نقصان من يتحدث عنا بمهارة، وأننا إذا أوضحنا قضايانا فسوف نكسبها ويتغير كل شئ للأفضل. هكذا غرقنا في بحر معلومات ولكننا نعجز عن حل أي قضية، بل أمورنا تتعقد نتيجة لنقصان الوعي وطبعاً لعجزنا عن اتخاذ أي قرارات إيجابية، اللهم إلاّ القرارات التدميرية للذات والجار والأهل والحارة والوطن. هل تعتبر أن المتفاوضين السوريين من كل الأطراف بمثابة بشر أسوياء وهم يجترون التفاهات بينما الشعب يهرب من العذاب والوطن يذوب. هل القيادات الفلسطينية يمكن وصفها بالبشرية وهم يجلسون أعجز من العجزة، ويتمسكون بالجلوس على الخوازيق .. وخذ على هذا المقاس في ليبيا والعراق واليمن السعيد. ماذا ينفعنا كل هذا الاستعراض المتواصل لتحليلات ولأخبار وصور وأفلام لما يحدث في وطننا إذا لم يدفعنا كل هذا لاتخاذ قرارات تغير مجرى الأحداث..»

«.. مثلاً ؟»

«مثلاً حراك شعبي متواصل في كل بلد يطالب بانتخاب قيادات جديدة كما حدث في تونس ويتكرر في الأردن. إلى متى ينتظر الفلسطينيون الإقدام على انتخابات تضعهم على بداية طريق صحيح، هؤلاء لديهم مشاكل مكثفة ولا حل لها إلا بالانتخابات، بينما بقية الدول عليها الإصلاح والتغيير الفوري قبل أن تنفجر أوضاعها هي الأخرى. المشكلة أن المتسلطين لا يعنيهم تدمير البلاد والعباد إذا كان الحل يعني إحالتهم إلى التقاعد. هل تعلم أن غالبية الزعماء والرؤساء والملوك

□□□ □□□□□□ .indd 25 □□/□□/□□□□ □:□□ □

العرب أعمارهم بين الستين والتسعين، يعني إذا اجتمعوا فهم يتحدثون عن أنواع الأدوية التي يتناولونها؟»

«لكن كل محاولة تغيير أدت إلى كارثة حتى الآن..»

«نعم والسبب هو طول عهود الاستبداد وانعدام فرص التجارب والتدرج للأمام، فإذا انفجر الوضع يلوح في الأفق ما هو أسوأ. نحن بحاجة لتغيير متواصل بطرق ديمقراطية، وبحاجة ألح إلى نظم تعليمية منفتحة على الآخر وبمنهج علمي ومنطقي وتربية متسامحة، لكن المتوفر للأسف هو العكس..» توقف لوهلة يرتشف بقايا قهوته وأنهى حديثه من دون النظر لصديقه: «بين شيوخنا وسواء ترامب أو كلينتون، فنحن ماكلينها ماكلينها.. الأمريكان لديهم ثأر عند العرب والمسلمين من غزوة ١١ سبتمبر في نيويورك وبالرغم من كل ما فعلوه بنا لم ينتهوا من تصفية الحسابات بعد.»

□□□ □□□□□□ .indd 26 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الغباء والذكاء

كل المعلومات متوفرة في ذهنه، لكنه عاجز عن تنظيم الأفكار، بماذا سيبدأ وإلى أي مدى سيتعمق في مقالته الأسبوعية التي يكتبها في العادة خلال ساعتين. أبعد ناظريه عن الكمبيوتر وخط بقلمه ملاحظات: رغبة ميركل في تخفيض كلفة الإنتاج، ممارسات سلبية من المهاجرين، احتجاج أوروبي لأسباب اقتصادية، نمو العنصرية وتقدم أحزابها في الانتخابات، تفكك الإتحاد الأوروبي، أينما حل المسلمون تتولد المشاكل، الإرهاب يجند المجرمين، تراجع تعداد الاطفال، زيادة المخاوف الديمغرافية... توقف لحظات وارتشف من كوب حليب وقرفة ساخن وخط: تجربة القرود الخمسة لصنع الأغبياء.

«بعد أن قرر عواجيز انجلترا إخراج بلدهم من السوق وحرمان الأجيال الشابة من المستقبل الأوروبي المشترك وكان ذلك ضد رغبة سكوتلنده وآيرلنده الشمالية، هاهي فرنسا تؤنب المانيا على أستقبالها أعداد مليونية من اللاجئين نتيجة الحرب في سوريا والعراق. ما ينساه الأوروبيون أن وضعهم الحالي نتج عن مخطط بريطاني متكرر تاريخياً للفساد. حكومة مارجريت تاتشر دخلت الإتحاد الأوروبي لتفجره من الداخل، فأصرت آنذاك على ضم دول أوروبا الشرقية للسوق بدون استعداد للأمر وفتح الطرق لتنقل العمالة، وهكذا غزى البولنديون وجيرانهم دول السوق وفي مقدمتها بريطانيا التي تطالب حكومتها الحالية من الشركات إعداد قوائم بأسماء عمالها الأجانب، غير البريطانيين. هذه الحكومة طبعاً هي نتاج الفصل البريطاني عن أوروبا الذي تم تحت شعارات طرد الأجانب من البلاد والتخوف من حركة اللاجئين إلى أوروبا والاستقلال عن بروكسل.» توقف عن الكتابة وراجع ملاحظاته وتأكد أن المقالة ستطول إذا لم يوجز ويختصر من المواضيع.

□□□ □□□□□□ .indd 27 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«الرئيس والحكومة الفرنسية تتخوف من تقدم حزب العنصري لابان وابنته، لذا ترفض استقبال لاجئين وتؤنب المانيا على فعلتها لأسباب اقتصادية. المعروف أن المانيا دولة مصدرة للصناعات، لكن أجور عمالها مرتفعة وبالتالي تتراجع صادراتها باهظة الثمن مقارنة بالإنتاج الصيني والأوروبي. هكذا قررت المستشارة ميركل وحزبها تجيير الأزمة السورية بفتح الحدود لمليون سوري سنوياً تحت شعار إنساني. أناس تربوا وتعلموا في بلادهم لعقود ويتم الآن الاستفادة منهم فور تعلمهم الألمانية خلال بضعة أشهر، فتهبط أجور الإنتاج وترتفع معدلات التصدير والدخل وتتوفر الأموال الضريبية لصناديق الضمان والصحة والتقاعد، وتتخلص البلاد من إشكالية تناقص سكانها وإنتاجهم وضرائبهم وتحل مشكلة من سيدفع للمتقاعدين رواتبهم المرتفعة.» أراد للفقرة التالية أن تشير لمسؤولية العرب عن تزايد العنصرية في الغرب ولكن عليه صياغتها بأسلوب مبطن لا يربط بين تواجد العرب والمسلمين في أي مكان وتولد المشاكل.

عندما تلتقي حضارات مختلفة تتولد مشاكل بالطبع، خصوصاً إذا كان إحدهما هارباً من حرب ضروس إلى بلد لا يقطنها ملائكة فقط. بضعة أحداث هنا وهناك، تحرش، إرهاب، سرقة.. استغلت من قبل انتهازيين عنصريين أشهروا سلاح حماية الألمانيات والثقافة والمسيحية، وضخموا بكل حدث إرهابي في أوروبا. نما حزب متطرف وبدأ يكتسح مقاعد في الانتخابات المحلية، وتعاظم الضغط على المستشارة من داخل حزبها بضرورة التراجع عن سياسة استيعاب اللاجئين. بالرغم من تحلي المستشارة بالشجاعة فلا يمكنها مصارحة العوام من شعبها بأن الرب هو الذي أهدى لنا هؤلاء اللاجئين الصناع المتعلمين لسد حاجتنا من نقص النسل والعمال والأموال ودفع رواتب العواجيز والعاطلين عن العمل ورواتب العنصريين.. مصارحة كهذه ستعني نهايتها وحزبها." لديه قناعة أن ميركل لن تصارح شعبها والعالم بحقيقة سياستها، لذا أراد للفقرة قبل الأخيرة من مقالته أن تعكس احتمالات ما سيؤول إليه الوضع ضمن المعطيات الحالية.

«إذا تواترت الأحداث وقرر شعب آخر غير الانجليز الانسحاب

□□□ □□□□□□ .indd 28 □□/□□/□□□□ □:□□ □

من الاتحاد الأوروبي، ونجح المتطرفون في فرنسا وهولندا في الانتخابات القادمة، مع تزعزع أو هزيمة للمستشارة ميركل، فهذا سيؤدي إلى سيادة الأغلبية الغبية سهلة الانقياد سعياً لإرجاع الماضي الذي يتصورونه سعيداً قبل الغزو الإسلامي العربي الأجنبي لبلادهم. هكذا سيعودون بسهولة للتفرقة والصراعات الأوروبية التي استمرت لقرون قبل نشأة الاتحاد الأوروبي، والعودة للتراجع الاقتصادي، وبالطبع سيكون الفتح الإسلامي من المهاجرين لأوروبا قد حقق بداية غاياته على طريق إزالة الفوارق بين البلاد المسلمة وبين أوروبا.»

تبقى يومان على موعد الانتخابات الأميركية، وهو يعايش الآن مجريات التراشق بمواضيع جوفاء بين المرشحين، دعارة، إتهامات جنسية، قصص تحرش، معاداة للأجانب. الذي يقلقه هو وجود نسبة عالية من الأمريكيين يؤيدون بالفعل المرشح الجمهوري ترامب وهذا ما أعاد لذهنه قصة القرود الخمسة، فقرر أن ينهي بها مقالته هذه كونها تعكس تمسك الرعية بشعارات وعادات متوارثة وغير منطقية.

«وضعت خمسة قرود في قفص وعلق لها قطف موز وتحته سلم. عندما صعد القرد الأول السلم لأخذ موزة تلقى مع الآخرين سيلاً من الماء البارد فتراجع عن غايته. حاول لاحقا قرد آخر التقاط موزة فتكرر الضرب بالماء البارد المزعج، وهكذا كفت القرود عن التطلع للموز. أخرج أصحاب التجربة قرداً وأدخلوا للقفص بديلاً له. على الفور توجه القرد الجديد للسلم سعياً للموز ولكن القرود الأربعة منعته واستعملت معه الضرب. تبع ذلك استبدال قرد آخر من الأربعة الذين عايشوا الرش بالماء البارد. القرد الجديد الثاني توجه للسلم وتلقى فوراً الضرب المبرح من الأربعة بمن فيهم القرد الذي لم يعايش تجربة الماء البارد. استمرت التجربة حتى تم استبدال كل القرود التي عوقبت بالماء البارد، لكن القرود الجديدة واصلت منع أي واحد يُستبدل من الاقتراب من الموز وهي لا تعرف السبب الذي يدفعها لضرب كل جديد تسول له نفسه مخالفة العادات السائدة.»

□□□ □□□□□□ .indd 29 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الفطرة المعطوبة

أنطلق بسيارته إلى العاصمة عبر طريق يخترق قريتين هرباً من جنون القيادة على الطريق السريع. بجانب محطة مياه اعترضت الطريق حفرة تكونت من التسرب طويل المدى، ويبدو أن فاعل خير قد ملاء الحفرة بالطين لتخفيف الصدمة، لكن الأمر تحول إلى وحل في الحفرة فتوجب عليه القيادة ببطء لمسافه طويلة حتى لا ترشق العجلات الطين أسفل السيارة. وصل إلى القرية فإذا بأولاد يلعبون كرة القدم أمام مدرستهم. انقسموا فريقين عبر الشارع، وخمن أنهم أولاد حرام. تحرك ببطء وهو ينظر إلى الولد الذي يثبت الكرة تحت قدمه، وفي اللحظة المناسبة سدد الولد الكرة فإذا بها ترطم باب السيارة. نزل ناهراً الأولاد فحضر بعضهم ومسحوا الوسخ من أثار الكرة لكن الباب لم يعد كما كان. واصل القيادة وهو يلعن المدارس والمدرسين والمسئولين والآباء والأمهات.

وصل إلى القرية الثانية حيث يسير السكان في العادة وسط الشارع. انتظر خلف إحدى سيارتين متقابلتين توقفتا ريثما ينتهي سائقيهما من حديث بدا أنه سيطول. بعد دقيقتين ضغطٍ على بوق سيارته فأخرج السائق الذي أمامه يده من النافذة مشيراً إليه بالصبر، فصبر وهو يتذكر حياة الفلاحين في القرى قبل عقود، حيث يوقف الناس حميرهم ويتحدثون في منتصف الطريق. انتهى المؤتمر وتحركت السيارة التي أمامه وأشار له السائق الذي يقابله بالشكر فرد تحيته. لم يتجاوز السيارة التي أمامه وأخذ يراقب الحركة في الشارع. لفت انتباهه كثرة المارة الذين يرمون بقايا علب المشروبات وأوراق وأغلفة في الشارع. بينما عامل نظافة مجتهد يكنس أطراف الشارع بقطعة كرتون ويحمل ما يجمعه إلى الحاوية. أخرج يده من النافذة وأسمع الزبال تحية حارة فاتسعت إبتسامة الأخير.

نظر في المرآة الجانبية ليدخل من الطريق الفرعي إلى الرئيسي فإذا بسيارة مسرعه على الجانب الأيمن تعطي إنذارات ضوئية وصوتيه تحذره من الاستمرار، لكنه واصل المسير وأجبر السيارة المهاجمة على

□□□ □□□□□□ .indd 30 □□/□□/□□□□ □:□□ □

أخذ المسرب الأيسر الذي كان فارغاً من السيارات وهو المسرب المحبب أصلاً للسائقين في البلد.

شاهد محطة وقود، فنظر إلى مؤشر سيارته وقرر الانعطاف يميناً. قبل أن يخبر العامل بنوع وكمية الوقود وقف بائع مناديل أمام النافذة، فأخبره أن الرزمة من المرة السابقة لا زالت على حالها. أطفأ محرك السيارة وأخبر العامل بما يريد وبعد وهلة نزل لينقده ثمن الوقود، فوضع البائع السيجارة المشتعلة في فمه وتسلم النقود مستعملاً كلتا يديه. إنطلق بالسيارة، وقبل الوصول للشارع الرئيس توقفت سيارة أمامه، فُتح باب السائق وأنزلت يده كوب قهوة ورقي على الأرض. أقفل الباب وواصلت السيارتان طريقهما.

مع بداية صعود طويل في الطريق تتحول المسارب من اثنين إلى ثلاثة. التزم المسرب الأيمن وصار يراقب بك آب احتل المسرب الأيسر المخصص للتجاوز. سيارة مرسيدس مندفعه على المسرب ذاته وتعطي إشارت للبك آب لينحاز لليمين، لكن هذا صمد في موقعه وأخذت الغازات السوداء تنطلق بكثافة متزايده من مؤخرته. سيارة أيكيا افانطي تجاوزت كلاهما على المسرب الأوسط، لكن سائق المرسيدس أصر على تأديب سأئق البك آب وبدأ يقترب منه وهو يطلق البوق، لكن هذا عمل أذن من طين والأخرى من عجين. تجاوزت المرسيدس من المسرب الأيمن بسرعة وانحاز فوراً على المسرب الايسر وأبطأ من سيره ليجبر البك آب خلفه على الانحياز لليمين أو إبطاء سيره في منتصف الطلوع. سيارات أخرى أصبحت تطلق أبواقها خلف البك آب، وكثر المتجاوزون في المسرب الأوسط. انحاز البك آب إلى اليمين بعد أن فقد عزمه على السير، فانطلقت المرسيدس تسابق الريح.

مدخل العاصمة الشمالي يدخلك في نفق لا ترى منه سوى كتلة ظلام ولا تعرف إذا كان المرور متوقف أو هناك سيارة معطلة في النفق. توكل على الله كالعادة وانطلق إلى مدخل النفق بسرعة ستين كيلو متر في الساعة. حمد الله عندما اتضحت الرؤية بعد اقتحام الظلام. على الطرف الآخر من النفق توجد إشارة مرور تنظم ثلاث مسارب، الأيسر مخصص لمن يتجهون بزاوية تسعين درجة لليسار ومن يريدون

□□□ □□□□□□ .indd 31 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الاستدارة الكاملة، المسربين الآخرين لمواصلة المسير للأمام. اتضح له وجود سته صفوف من السيارات بدل ثلاثة، وخطرت له فكرة لو صنع الصينيون سيارات بأجسام منزلجه منضغطة كأجسام الصراصير. إلتزم مسرب اليسار ووقف ينتظر الإشارة. نزل السائق من السيارة التي أمامه وذهب إلى الجزيرة وقطف آخر وردة جوري على شجرة متهالكة من العطش، وقدمها من النافذة الخلفية لأنثى معه في السيارة وعاد لمقوده. على الفور طارت الوردة مطرودة من الشباك، نزل مجددا وتناولها وتفقدها ثم ألقى بها حيث أمها الشجرة. يبدو أن البلدية لم ترش الأشجار وبالتالي عشش جعران في الجورية وربما لامس أنف الجميلة.

أخضرت الإشارة وتحرك يساراً بزاوية تسعين درجة، لكن أحدهم من المسرب المجاور استدار معه ويريد الالتفاف بزاوية مائة وثمانون درجة. أصابته نوبة غضب وعناد وقرر الاستمرار في المسير تاركاً المخالف على يمينه بينما انطلقت الأبواق من كل اتجاه. دخل إلى زحمة المدينة حيث بياع موز وفواكه يحتل المسرب الأيمن، وزبون ترك سيارته بجانب عربة الفواكة ونزل يتبضع، بينما السيارات من خلفه أصبحت مضطرة لانتهاز الفرص والتجاوز على المسرب المقابل ليواصلوا المسير. تحركت السيارات بسلاسة بعد ذلك وبلغت السرعة حوالي أربعون كيلومتر، فجاة ألقيت من السيارة التي أمامه علبة بيبسي، قفزت وتدحرجت واستقرت تحت عجلاته. أطلق بوقه محتجاً فخرجت يد من السيارة الأمامية رافعة الأصبع الأوسط. ضغط على البوق مرتين ثم تشعبت الطرق بينهما بسلام.

منذ اجتيازه حفرة الماء المطينة بعد الانطلاق من البيت حتى الإشارة له بالإصبع الأوسط وهو يحاول ترجمة كلمة commen sense التي يفهم معناها ويطبق محتواها كل انسان تقريباً في العالم الغربي، لكنها لا تعني أي شئ للإنسان العربي، إذ لا رديف دارج لها. وصل إلى غايته فتوقف ووضع المصطلح في مترجم جوجل من الانجليزي للعربي، فكانت النتيجة: الفطرة السليمة. ماذا لو كان العربي والمسلم بفطرة سليمة؟ هل سيكون بمستوى رقي الإنسان الغربي الذي تعلم تنمية هذه الفطرة؟

□□□ □□□□□□ .indd 32 □□/□□/□□□□ □:□□ □

كان يتسائل ولا يجيب. ماهو مصير الفطرة السليمة في الغرب لو نجح الأجداد في فتح الضفة الشمالية للبحر المتوسط كما فتحوا ضفتيه الشرقية والجنوبية؟ هل كان كولمبوس سيكتشف القارة الأمريكية، وهل سنكون وصلنا في الصناعة إلى ما وصل إليه الغرب .. سيارات وطائرات وكل ما ينتهي بحرف التاء، أم سيكون العالم الآن من مستعملي الدواب والكارات؟ واللاجئين المساكين ضحايا الحروب الأهلية والصراعات الطائفية في الدول العربية والإسلامية، أين كانوا سيذهبون؟ أفاق من تخيلاته على بوق سيارة يريد صاحبها معرفة إذا كان سيغادر المكان ليأخذ موقفه. أجابه بالنفي وهو يحمد ربه أنه أوصله بسلام، ودعاه أن يعيده بأمان.

□□□ □□□□□□ .indd 33 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 34 □□/□□/□□□□ □:□□ □

إبراهيم وسليمان

□□□ □□□□□□ .indd 35 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الآلهة

«لا توجد أمة تقدمت وازدهرت بفضل اعتمادها على الآلهة أو الدين، ولم تنقذ الآلهة أي أمة متدينه من الإفلاس أو الجوع، ولم تبتعد الكوارث عن المتدينين الفقراء.» قال بحسم ظناً منه أنه حسم الأمر مع صديقه المبتسم على الدوام في مثل هذه النقاشات.

«هذا صحيح ظاهرياً، الآلهة لم تتدخل لنصرة المظلومين وتصحيح الأوضاع أو منع الضرر عن المتقين، أو من يدعون أنهم متقين..» نظر إلى صديقه الذي تناول قدح البيرة يغب منه فاتحاً المجال لرد بدون مقاطعة. «.. لكنك تقر معي أن التربية، وليس الفعل إلالهي، هي المسؤولة عن تصرفات وبالتالي رفاهية أو خراب الأمم. وللدين بالطبع دور أساسي في تربية الأفراد والمجتمعات. أرجو أن تتفق معي على عدم وجود فوارق مصنعية بين أجناس البشر تسبب الاختلاف في التنمية بين مجتمعاتهم..» أوحى الصديق بالموافقة وهو يمرر قدح البيرة البارد على وجهه. «.. مثلاً بالمراقبة الآن نرى التربية البروتستنتينيه والانجيليكية قد أنجبت دولا متقدمه في الشمال الأوروبي مثل هولندا والمانيا والدنمارك والسويد والنرويج وغيرها. بينما جماعات الجنس ذاته، ولكن من معتنقي الطائفه الكاثوليكية، تربوا على الاسترخاء والاتكالية وتعاني بلدانهم بالتالي اقتصاديا، مثل أيرلنده وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال. أما التربية الأرثودكسيه فقد أوصلت شعوبها إلى التطفل مثلما حصل مع قبرص قبل سنوات ويحدث الآن في اليونان، يريدون نقود الغير من دون تحمل مسؤولية.»

«والمسلمون ؟» لم يفهم الصديق السؤال وخمن أن البيرة أخذت تتفاعل مع صديقه.

«نعم المسلمون ككل أقل نمواً من الغرب المسيحي، لكن هناك أيضاً

□□□ □□□□□□ .indd 36 □□/□□/□□□□ □:□□ □

فوارق جلية في الأداء والمنجزات بين الطوائف الإسلامية المختلفة، وهذا يعزز ما أقوله بأن الدين له دور في التربية التي تتحكم بدورها في حجم وتوجه التنمية لدى المجتمعات.»

«لقد خرجت عن صلب الحديث يا صديقي..» قال بعد أن أزاح القدح وضم كفيه لبعضهما مثلما يفعل الهنود عندما يتشكرون: «..وأخطأت في المقارنة أيضاً. فأنا تحدثت عن فعل الآلهة الخالقة تجاه المخلوقات وأنت تتحدث عن التربية وتربطها بالتعليمات الدينية. لكن حقيقة الأمر أن الفوارق بين الشعوب التي ذكرتها موجوده قبل ظهور المسيحية وتشعب طوائفها. أظن أن للمناخ علاقة بالأمر فالشمال نشط بفعل البرودة والجنوب كسول بفعل الحرارة..» ارتفعت حواجب الصديق حين لاحظ أن البيرة لم تخدر بل فتحت عقيرة صديقه الذي أكمل حديثه: «.. تعاليم الدين الإسلامي لا تختلف في مجال التحريض على العمل والإخلاص عن التعاليم المسيحية، يعني الخلل ليس في الدين وتأثيره على التربية نشاطاً أو كسلاً ولكن العيوب في البشر..»

«كلامك أصبح خطيراً لانك الآن تقر بوجود اختلاف في مصنعية البشر، وأن الله لم يخلقهم سواسية ويمنحهم الفرص ذاتها..»

«دعني أؤكد لك..» استرد الحديث بعد أن أفرغ بقية ما في الزجاجة الثانية في قدحه: «.. لو نزل القرآن في برلين أو ستوكهولم وليس في جماعة أبي جهل، لأصبح الغرب أكثر نشاطاً ونمواً وغنى حتى بدون نفط. لأن طبيعة بلادهم تحثهم على النشاط. أنت ترى العرب متخلفين فتسبب ذلك بدينهم، ولكنهم متخلفون لأنهم عرباً ولدوا وعاشوا في هذه المنطقة الصحراوية.»

«لا يمكن أن يكون المناخ هو العامل الرئيس في النمو والرخاء لأن الجنوب المسلم تفوق في الماضي على الشمال المسيحي عندما كان الإسلام أكثر ارتباطاً بالعدل، والعرب الآن يتفوقون كأفراد في المجتمعات الغربية التي تتيح لهم حرية التفكير والعمل..» مد الصديق يده بقدح البيرة إلى صديقه ليوقف النقاش ولكن هذا أزاح يده برفق وأكمل: «.. سوف أوجز لك واقنعك بمثال الصين. فهي دولة ملحدة وجنوبية وكانت متخلفة لقرون بفعل الاستعمار، ولكنها بعد أن أعادت

□□□ □□□□□□ .indd 37 □□/□□/□□□□ □:□□ □

تربية المجتمع بعيداً عن الأديان أصبحت في مقدمة الأمم إنتاجياً، المهم هو التربية المجتمعية ونظم التعليم المنطقية والعلمية.»

لم يسمع أي تعليق من صديقه الذي رفع حاجبيه ورسم بسمة عديمة التعريف على وجهه فقد كان يتذكر كيف يرمي العرب زبالتهم من السيارات على الطريق السريع، ويؤكد لنفسه أن مثل هذه التصرفات تعارض السليقة والفطرة البشرية.

□□□ □□□□□□ .indd 38 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الملحد

«إشرح لي إذا كيف خُلق الإنسان ولا تكرر علي نظرية التطور.» سأل سليمان صديقه بعد نقاش حول الخلق والخالق وما اعتبره إبراهيم تناقضاً في الروايات الدينية. «إذا كانت الديانات ملفقة ومعظم الأنبياءلا وجود لهم والبشر لم يخلقهم الله..»

«أنت تبالغ في التوصيف يا صديقي فهناك خالق بالطبع ولكنه لم يخلق البشر بل خلق من خلقهم، ونحن صدقنا الروايات الدينية السهلة فوقعنا في التبسيط والأخطاء.» قاطع إبراهيم صديقه ثم واصل بعد لحظات سكون: «هل لك أن تخبرني كيف تطابق البناء في مصر واميركا اللاتينية قبل الآف السنوات حيث لم تكن هناك سبل تواصل بين القارتين؟» كان الصديقان قد تناقشا مراراً حول تشابه الآثار القديمة بين مناطق جغرافية تفصلها المحيطات. إبراهيم يعتقد أن البشر خلقوا كتجربة من قوم يسكنون فضاءً آخر، جاءوا إلى الأرض ووزعوا مخلوقاتهم البشرية في عدة قارات وعلموهم بعض الأساسيات ومنها البناء فجاءت أهرامات مصر مثل أهرامات أخرى في عدة مناطق بجنوب أميركا. أما سليمان فيعتقد بالرواية الدينية التي سجلتها اليهودية وأخذت بها الديانات الأخرى بخلق الله لآدم ولحواء من ضِلعه، وهي الرواية التي يرى إبراهيم أنها تزخر بالتناقضات.

«بصراحة يا إبراهيم أنت وحيد بين خلق الله في تبنيك لهذه النظرية الفضائية.»

لست وحيداً إلى هذه الدرجة، ودعني أخبرك بوجود مليار ملحد منتشرين في الأرض ولكنهم قلة قليلة في الشرق الأوسط الأكثر تخلفاً واقتتالاً، والأشد أيمانا بالديانات كون هذه المنطقة هي منبع الأساطير الدينية ... يعني واحد من كل سته لا يؤمن بنظرية الديانات، بينما الآخرون

□□□ □□□□□□ .indd 39 □□/□□/□□□□ □:□□ □

يتوزعون على ديانات ذات منبع واحد ولكنها متحاربة مع بعضها وكل منها تنفي الأخرى أو على الأقل تتهمها في أوقات السلم بالتزييف.

«تعني أن الديانات ذات منبع واحد سماوي . .»

«لا تتصيد في المعاني يا سليمان، تعرف تماماً أنني اشُير إلى الأصل الأسطوري الذي نقل عنه اليهود آياتهم وقوانينهم ثم جاء عيسى اليهودي بتجديد لكتاب اليهود وانفصلٍ اتباعه عن اليهود وشكلوا الدين المسيحي معتبرين التوراة جزءاً أساسياً من دينهم، وجاء الإسلام ليجدد هاتين الديانتين ضمن الأسس ذاتها.» لم يكن هناك حدة في الحديث بين الصديقين اللذين تعودا على مثل هذه الحوارات وحرصا على عدم التهور في مثل هذه الأحاديث على مسمع من الآخرين.

«أفهم منك يا صديقي الملحد أن كائنات من فضاء أخر صنعتنا لغرض ما ووزعتنا على بقع هذه الأرض وتركتنا تحت المراقبة بعد أن علمتنا بعض الأساسيات. . . وهناك بالطبع خالق آخر لهذه المخلوقات الفضائية ؟» أجاب إبراهيم صديقه محركاً رأسه بنعم وبلا في ذات الوقت، فأكمل «إذا وافقتني على ذلك ففسر لي لماذا تصدق نظريتك هذه وتكذب أن الله هو الذي خلقنا مباشرة وأرسل لنا الأنبياء لنهتدي؟»

«بكل سرور» قال إبراهيم وهو يبتسم وكأنه أوقع بسليمان حيث يريده. «لأن ما تعتبره أنت كتباً سماوية مشحونة بتناقضات هائلة وتضارب جلي، وتُفهم على عدة أوجه، وتسببت للآن في خلافات ودمار بين الناس، وسحل وجلد وحرق وخوزقة وشنق، وبالتالي لا يعقل أن تكون كتباً مُنزله. كل أوضاعنا تشير إلى أننا حقل تجارب ولسنا مخلوقات عاقلة من إنتاج خالق عليم بكل شئ.»

«وماذا يختبرون ويراقبون فينا إذا؟»

«تصديقنا لكل شئ مثلاً . . وأنا لم أقل أنهم يختبروننا بل قلت يراقبوننا، وهذا شئ أوسع بالطبع. لقد خلقونا متساوين في العقل والأعضاء، متقاربين في الشكل الخارجي، وعلمونا بعض الأساسيات، ومن ثم تركونا للمراقبة.»

□□□ □□□□□□ .indd 40 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«والنتيجة كما تراها أنت؟» سأل سليمان صديقه متماشياً مع نظريته.

«إحدى النتائج قد تكون أنه لا يمكن تطبيق المساواة والعدالة بين الأمم أو بين الدول أو بين أتباع الملة أو العائلة الواحدة حتى ولو كان البشر متساوون في الأساسيات.» صمت إبراهيم وهلة ثم أضاف: «يعني لو كانوا خلقونا ويختبرون مثلاً إذا كنا نصلح لخدمتهم فستكون النتيجة سلبية لأننا مخلوقات أنانية بالفطرة ولا نؤتمن على شئ. لكن إذا كانوا قد صنعونا للتسالي، كما نصنع نحن المسلسل التلفزيوني، فقد افلحوا، وربما زجوا لنا بفكرة الأديان لتنشيط القتل والظلم تحت تسميات الحب والعدالة، وهذه قمة الحبكة التراجكوميدية لمسلسل التسلية المتواصل.»

□□□ □□□□□□ .indd 41 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المؤمن

«دعنا نتفق على حقيقة أن المؤمنين سته أضعاف الملحدين في العالم، وبالتالي الأكثرية على صواب.. أليس كذلك؟» سأل سليمان صديقه إبراهيم في جلسه حوارية جديدة وهو متأكد أن إبراهيم سيفند رأيه هذا.

«لسنا في عملية إنتخابية يا عزيزي لتخبرني أن الأغلبية فازت وعلى الأقلية الإنصياع. كذلك وصفك لغير الملحدين بأنهم مؤمنين غير دقيق، والمؤمنون بالفعل بينهم قلة.» توقف إبراهيم لارتشاف الشاي ثم واصل مجادلته لصديقه: «الأغلبية التي تشير إليها هي مجموع أتباع لعدة ديانات متصارعة ضد بعضها ومتحزبة لطوائف متخاصمة في كل منها، وبالتالي لاتشكل هذه الأغلبية كتلة متجانسة. لا تنسى أيضاً أنهم اكتسبوا الصفة الدينية بمجرد الولادة، أي بالتطبع وليس بالاقتناع، ولذلك تجد من يطبقون الطقوس من البالغين قلة، خصوصاً لدى أتباع الديانة المسيحية.. وبالمناسبة هل تلاحظ التناسب بين مناطق الالتزام الديني من جهة وبين التخلف التنموي والبشري من جهة أخرى، بينما العكس صحيح لدى التجمعات المتسامحة دينياً والملتزمة بالقوانين المتجددة والمتطورة..»

«تقصد التدين يُنتج التخلف، بينما التسيب يؤدي للرخاء» قاطع سليمان صديقه باستهجان ثم واصل حديثة لمناقضة إبراهيم في مجال أخر: «أتدري أن نظريات علمية حديثة قيد الإثبات تشير إلى أنه لا يوجد كون بدون وجود الإنسان؟؟ أي أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون لنا، ولو لم نكن لما كان الكون.» رفع إبراهيم حاجبيه وابتسم في انتظار توضيح من سليمان. «قبل ثلاثة قرون أثبت نيوتن أن الضوء يتكون من جسيمات صغيرة، ثم تبعه توماس يونغ واكتشف أن الضوء يتكون من موجات، وساد الاختلاف حتى أثبت العلم لاحقاً أن الضوء يتكون

□□□ □□□□□□ .indd 42 □□/□□/□□□□ □:□□ □

من كيلهما. المهم هنا أن الضوء يتغير من الموجي إلى الجسيمي عندما نراقبه ونفحصه ونقيسه، أما إذا غبنا عنه فيعود إلى طبيعته الموجية..»

«يعني الضوء يعرفنا فيتحول عندما يرانا إلى شئ آخر.. هذا يذكر بالجدل العقيم: هل الشجرة في الغابة وقعت بالفعل إذا لم يراقبها أحد..» «أنت تقاطعني ولا تريد حتى الاستماع إلى النظريات العلمية التي قد تغير الرؤية للخلق والخليقة حين تثبت عبر الفحص العلمي.» أسكت سليمان صديقه وعاد يواصل ملخص تبيان ما طالعه: «إذا صعب عليك تصديق نتائج فحوصات علمية في جامعات مرموقة فدعني أخبرك أنهم يقولون: ما ينطبق على فوتونات الضوء ينطبق أيضاً على الالكترونات التي تتكون منها جميع المواد.» كانت ابتسامة إبراهيم قد اتسعت ملئ شدقيه ولكنه لم يقاطع شروحات صديقه. «طبعاً تريد سؤالي كيف تمكن العلماء من رصد هذه الظاهرة وكيف أثبتوها؟» أومأ إبراهيم لصديقه بنعم، فأكمل سليمان«لن أخبرك، ولكن راجع أنت اشهر التجارب بهذا الصدد وتسمى Double Slit Experiment أي تجربة الشق المزدوج وأيضاً تجارب جون ويلر عالم الفيزياء الأشهر في القرن العشرين.»

«والنتيجة يا سليمان لهذا الاكتشاف العلمي؟» لم يظهر إبراهيم أي استخفاف بشروحات صديقه، ولكنه كان يعرف بوجود محاولات من علماء متدينيين لتاكيد رؤية الديانات.

«النتيجة كما تؤكد التجارب أن الإنسان الذي خلقه الله ليس شيئاً مهملاً في الكون بل إن مجرد وجوده فقط يغير من طبيعة الكون، وبالتالي لو لم نكن موجودين لما وجد الكون، أو كما يقول ويلر: وجودنا يؤثر في الكون حاضره ومستقبله وماضيه.»

«ها قد وجدت ما تكتبه ويكيبيديا عن صديقك الأميركي ويلر..» قال إبراهيم وهو يطالع شاشة هاتفه الذكي: «إنه من مخلفات الحرب العالمية الثانية، ويمكنني في عجالة مطالعه أنه شارك في تطوير القنبلة الذرية وأختها الهيدروجينية، يعني هو فيزيائي شهير بالفعل، لكن يبدو أن ما تقوله أنت كان إحدى النتائج الجانبية لتجارب تلك الفترة. إجمالاً أعدك بمراجعة الأمر، لكن عقلي يخبرني أنه لو لم نكن موجودين كبشر لما وجد الكون حقاً لأننا لسنا هنا لندرك هذا أو ذاك.»

□□□ □□□□□□ .indd 43 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«تدعي أنك تؤمن بالعلم والنتائج الملموسة فلماذا ترفض أي إثبات علمي لوجود الدين؟» سأل سليمان ببعض الحدة وقال إنه راجع ما كتب عن تلك التجارب.

«يا صديقي أنت تمتلك رؤية دينية تهيمن على أفكارك ومحيطك. المجتمعات المتدينة لا تنشأ فيها مناخات لتطوير الدماغ، لأن الدين عموماً يقدم إجابات على أي سؤال ويحل أية معضلة ويعالج أي مرض ويُريح دماغ المتدين.»

□□□ □□□□□□ .indd 44 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الهرمون

كان تركيز إبراهيم على صحن فتة الحمص، كلما تناول بعضٍ الفول أو الحمصية يعود إلى الفتة التي يعشقها إلى درجة الإدمان وكثيراً ما يتردد مع سليمان على هذا المطعم الشعبي الذي حافظ على طعم خلطة الفتة. «هل دماغك متوقف عن التفكير في غير الطعام حتى تشبع؟»

«بالعكس تماماً يا سليمان، أنا أكل فأنا أفكر، وكلما تعمقت يزداد شوقي للطعام، وكلما تناولت ما أحب تكون افكاري أوضح.» توقف عن الكلام وتناول ملعقتين من الفتة غمسهما بزيت الزيتون. «هل ترى ذلك الصبي؟» أشار إبراهيم بعينيه إلى فتى مر بهما للتو، ففنى سليمان بحركة من رأسه أي معرفة بالفتى. «أنا اعرف أباه. هذا الفتي شيوعي مثل أبيه.»

«لكن لا يبدو أنه تجاوز العاشرة.»

«في الحقيقة عمره تسع سنوات فقط، ولكنه شيوعي.» أعاد إبراهيم التأكيد وهو يقضم من ربع بصلة ناشفة.

«يا رجل عمره تسع سنوات وتصفه بالشيوعي، والله لو سألته عن بعض مقولات ماركس أو ماو تسي تونج لما عرف شئ. في هذا السن يكون الصغارِ مغرمين بأشياء أخرى، كما أن النظام الاقتصادي الشيوعي معقد جداً..» توقف سليمان وقد لمح ابتسامة على فم إبراهيم المغلق على بعض الفته.

«أترى تلك الطفلة الصغيرة خلف والدتها المحجبة؟» أومأ سليمان بنعم وقد تشكك في أنه قد وقع في احدى أفخاخ صديقه الملحد. «إنها طفلة مسلمة.» سكت إبراهيم ولم يعلق سليمان منتظراً أن يطبق الفخ عليه.

□□□ □□□□□□ .indd 45 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«لم ولن تحتج لوصف الطفلة بالمسلمة. هل تظن أنها استوعبت أي من شؤون الدين واقتنعت مثلاً بقصة آدم وحواء، والطوفان، وسحر النبي موسى، ومولد عيسى بنفخة وسيره على الماء ومعجزاته الأخرى، ناهيك عن معجزة الإسراء والمعراج، وهل تلك الطفلة اقتنعت بالغيبيات والجن، بل وبتفسير كل شئ في الوجود والكون كما يُقر الدين؟»

«كل مخلوق متدين بالفطرة منذ لحظة ولادته، ويكون على دين أبائه، بعضنا يؤمن ويسلم ويقتنع بما يقوله أهله ومجتمعه، وقله مثلك، تتمرد عندما تدرك وتتنكر لكل هبات الله.» أنهى سليمان الحديث وأشار للنادل طالباً براداً من الشاي بالنعنع إذ توقع جلسة غير سريعه مع إبراهيم.

«هل تستمتع بالتعبد وترتيل القرآن والصلاة..؟»

«نعم» قاطع سليمان صديقه الذي كان ينظف صحن الفتة. «صوت المؤذن يريح أعصابي والصلاة بين يدي الله تعطيني الأمل والثقة والطمأنينة، والأعياد تفرحني الآن كما كانت في الطفولة، وكلما ضاقت في وجهي أدعو ربي فيفرج عني، ولكن كل دعواتي لك بالهداية لم تُفلح، لا أدري للآن حكمه الله في عدم هدايتك.»

«دعك من هدايتي وأجبني، بعد أن كبرت وتعلمت ألم تساورك شكوك في مصداقية القصص الأسطورية التي تحتاج إلى إيمان مطلق؟» «لا طبعاً» أجاب سليمان وهو يسكب الشاي من الإبريق في الكاسات. «عندما تؤمن فهذا يعني بالغيب وبالله وبالآخرة، وما يعصى على فهمك لا يعني أنه خطأ، وإنما أنت لم تنضج بعد وعليك مواجهة الأمر بالإيمان، لو كنت تعرف كل شئ فأنت نبي أو أكثر.»

«إذاً الإيمان هو السر في ديمومة الديانات. اسمح لي أن أعطيك تفسيراً علمياً لماذا أنت مؤمن ملتزم بالطقوس والعبادات.» أمسك إبراهيم بمعلقة السكر ووضع لصديقة معلقتين منه وهو يذكره بأنه مدمن على الحلو. «كما أنت مدمن على السكر وأنا مدمن على الفته، فجسدك مدمن أيضاً على الطقوس الدينية وعقلك يقاوم كل من يحاول أن يثنيك عن معتقداتك التي هي معتقدات عائلتك وقبيلتك وربما وطنك وأوطان أخرى تدين بنفس العقيدة.»

□□□ □□□□□□ .indd 46 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«هذه المحاضرة ستطول على ما يبدو، فلا تبالغ في التفسير، لديك وقت احتساء كوبين من الشاي فقط.»

«حتى كوب واحد سيكفي..» وأضاف مبتسماً لسليمان الذي يتيح له تنشيط أفكاره ويواجهه بالمضادات. «يحتوي الجسم على هرمونات متنوعة، ننتجها في ظروف معينة فيصبح الهرمون المتع منها طلباً متكرراً. خذ مثلاً هرمون الجنس عند الذكر والأنثى، فهو الذي يحببنا بتكرار تلك الممارسة ولا نكتفي بما تطلبه الديانات باقتصار النكاح لحفظ النسل فقط.» تلفت سليمان حوله خوفاً من وجود إناث بالقرب منهم، فذكره إبراهيم أن هذا مطعم ذكوري ومجتمع ذكوري وواصل حديثه: «لدينا هرمون السيروتونين المتوفر لدى كل الثدييات ويتحكم في المزاج العام، فأذا ربحت مرسيدس الآن سيرتفع الهرمون لديك ويسعدك، وإذا طردك أبوك من البيت سيهبط الهرمون وينكد حياتك. أما هرمون الدوبامن فهو المختص بالمتعة ويطالب بتكرار الفعل الذي ولد تلك المتعة سواء فتة حمص أو مضاجعة جنسية. أنت تعرف طبعا الأدرنالين الذي يُسرع عدد نبضات القلب و هو عادة يفرز في حالات الخطر لكي يساعد الجسم في نقل السكر لجميع الخلايا بشكل سريع للتعامل مع الخطر. ولا ننسى أوكسيتوسين، هرمون الحب والثقة والتعاطف ويقوي الترابط وهو ما تفرزه الأم المرضعة في العادة ، ولهذا يقال دلل البيبي تحبك أمه. وهذا الهرمون له أهمية كبيرة عند الحديث عن الأديان بسبب موضوع الثقة والتعاطف والترابط الاجتماعي. أي نظام فكري يستغل هذا الهرمون هو نظام رابح. ونختتم بالمورفين الذي يخفف الشعور بالألم." نظر إبراهيم إلى كوب الشاي ليؤكد لصديقه أنه اقترب من النهاية. "أعرف الآن يا صديقي أن الطقوس الدينية تحفز الدماغ على إفراز الهرمونات الإيجابية فتقوم هذه بعمل الأدوية المهدئة. طقوس التراتيل أو الرقص أو حركات الصلاة، وتعود التكرار الأسبوعي أو اليومي عليها، تجعلك تتمسك بهذا الطقس وتتصدى لكل من يهدد سعادتك وتماسك عائلتك وقبيلتك لأنك لا ترى في الحوار تهديد لأفكارك فقط وإنما نسف لكل شبكتك الاجتماعية، وأنت لن تغير رؤيتك لأنك أصبحت مدمن.»

□□□ □□□□□□ .indd 47 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«هذا تفسير عجيب غريب.» قال سليمان وقد نهض مع صديقه الذي سدد الحساب وأخذ يوضح له أثناء عودتهما إلى السيارة أن حركات الصلاة مثل الرياضة تسبب إفراز المورفين لمواجهة الألم، بينما الدوبامين يُنتج السعادة أثناء الصلاة لأسباب روحانية، ثم يتدفق هرمون الحب عند الخشوع لله الصديق الحبيب في السماء.. ولهذا لا توجد ديانة بدون طقوس تؤدي في النهاية إلى إلادمان والتعصب ضمن الجماعة. «لذلك أنا لا أخطط لإبعادك عن دينك لأن هذا يتطلب مني أن أقدم لك خلطة البديل الكيميائي والاجتماعي.»

□□□ □□□□□□ .indd 48 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الأناني

«وما العمل يا إبراهيم ؟»

«يمكنني الإفتاء بأن الحل الأنجع هو إلغاء الأديان كلها والالتزام بالقوانين الدنيوية التي تضمن الحقوق وتنمي الأخلاق والقيم بما يتماشى مع التطور البشري. لا يمكن أن تسير الآن مجتمعات تسعى للحداثة، بوقود وقيم وقوانين سادت منذ الآف السنين. لكن تغيير الأديان والغاؤها مستحيل وبالتالي نحن بحاجة إلى تقليد من كانوا مثلنا متخلفين ونجحوا حين فصلوا بين الدين من جهة وبين التعليم والقوانين والأنظمة من جهة أخرى. هذا أقل ما يجب علينا فعله حتى نتخلص من حالة الإنفصام والتخبط.» كانا قد وصلا إلى الجامعة للمشاركة في حفل تخرج أحد أصدقائهما. «ألا تلاحظ أن البنات كلهن محجبات، ولم أرَ ذكراً يتحدث مع أنثى.»

«دعنا من هذا.« قال سليمان وأضاف: «أتفهم أهمية تحديث نظم التعليم ولكن لماذا تريد عزل الدين عن شؤون الدنيا وإلغاء التربية الدينية؟» ضرب سليمان صديقه بكوعه ليعيده للتركيز وغض النظر عن مجموعة طالبات يضحكن. «الدين يُعلم الرحمة وينمي روح التعاون ويدعم مفهوم العدالة ويحث على الإخلاص في العمل، فما الضرر في تعليمه بالشكل الإيجابي للأطفال في المدارس وفي الجامعات؟»

«كيف ستعلم الطفل درساً في الكيمياء أو العلوم يعتمد على التجارب وثم تعطيه في الساعة التالية درساً في الدين يعزز لديه روح الغيبيات ويقدم له كل الحلول من منظور لم يتغير منذ قرون بعيدة؟» توقف إبراهيم عن الإجابة ثم استدار لمواجهة صديقه وأكمل: «حديثك عن تنمية روح التعاون يذكرني بدراسة أجريت حديثاً على مجموعة أطفال من ستة دول هي أمريكا والصين والأردن وجنوب أفريقيا وكندا وتركيا.

□□□ □□□□□□ .indd 49 □□/□□/□□□□ □:□□ □

تلاحظ أنهم اختاروهم من دول مسيحية وإسلامية وملحدة وأخرى غير متشددة في موضوع الدين. وكانت التجارب البحثية بإدارة جامعة شيكاجو تسعى لمعرفة ما إذا كان الأطفال من المجتمعات والأسر المتدينة أكثر تسامحاً وأقل أنانية من مثيلهم من الدول والأسر غير المتدينة.» استدار إبراهيم وعاود المسير بجانب سليمان بدون أن يقدم إجابة على نتائج البحث.

«طبعاً تريد مني التخمين من هو الطرف الأقل أنانية؟ طالما أنك لجأت لهذه الدراسة في حديثنا هذا فبالتأكيد أصحابك الملحدين هم الأقل أنانية.»

«استنتاجك صحيح يا سيدنا سليمان، ولا تنس أن هذا اختبار علمي تم على حوالي ١٢٠٠ طفل وبإشراف جامعة في بلد متدين. ثم ألا ترى كيف تقدمت الصين في بضعة عقود وليس قرون من بلد متدين مفلسٍ يتعاطى الأفيون إلى أول بلد منتج في العالم ونقودها هي التي تسير دولاً كبرى وفي مقدمتها أمريكا؟»

«هاهي تركيا المسلمة تتحول إلى دولة صناعية مُصدرة..»

«أراهنك أنها ستخوض في وحل حرب دينية أو طائفية أو مع جيرانها في غضون العقد الحالي، ونموها لم يأت على أيدي الأحزاب الإسلامية.» قاطع إبراهيم صديقه وهما يقتربان من باب صالة الاحتفالات: «ثم إننا نتحدث عن التربية والتعليم وأنانية أطفال الأسر والدول المتدينة وهذا لا يعني أنها لا تستطيع إنتاج بعض الصناعات.» دخلا الصالة وشاهدا أن الاناث يجلسن على اليسار والذكور على اليمين. «الدنيا لسه بخير فعلى الأقل لم يفصلوا بين الجنسين بساتر.» بين طنين الحضور سأل سليمان صديقه كيف تم ذلك الاختبار في شيكاجو وإذا كانت هناك استنتاجات أخرى.

«كان الاختبار عبارة عن فحوص نفسية ويشمل تبادل الأطفال للصفقات ومشاهدة أفلام كرتون يصطدم بعض شخصياتها بآخرين عمدا أو بالصدفة ثم يجيب الأطفال على اسئلة إذا كان التصرف خطأ أو لا وماذا تستحق الشخصية الفاعلة من عقاب. والنتيجة أن الأطفال المتدينين

□□□ □□□□□□ .indd 50 □□/□□/□□□□ □:□□ □

عبر العالم كانوا أكثر تاثرا سلبيا وأنتقاميين وغير اجتماعيين وهذا يطرح السؤال حول مقولة أن الدين يعلم الأخلاق وأن العلمانية تفعل العكس. آباء المتدينيين كانوا يظنون أن أبنائهم هم الأكثر رحمة وتعاوناً وتسامحاً وحساسية ولكن النتائج أثبتت أن اطفال المتدينيين لا يحبون التقاسم ويسرعون للإحكام على الآخرين وعقابهم وليسوا خيرين بمستوى الأطفال الآخرين الأكرم منهم.»

«حتى في الكرم الصين أفضل من العرب.» قال سليمان بحيادية وسكت إذ بدأ عريف الحفل في حديثه كما أن سليمان تذكر ما طالعه قبل فترة وجيزة بأن دولاً عربية جاءت في منتصف ومؤخرة دول العالم فيما يخص موضوع الكرم الذي فازت به دولة فقيرة مثل مانيمار، وخطر له أن يضع هذه النتائج أمام إبراهيم ليثبت له أن الدول الدينية هي الأكرم وأن الصين لم تتصدر القائمة.

□□□ □□□□□□ .indd 51 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الكريم

«الصين هي أكبر دولة ملحدة في العالم، وثاني أكبر اقتصاد بعد الولايات المتحدة، لكنها لا تحتل أي موقع متقدم في قائمة العطاء.» نظر إبراهيم إلى سليمان مستوضحاً منه ما يريد إثباته، فأكمل: «يعني أصحابك الملحدين ليسوا كرماء، والكرم جزء أساسي من الأخلاق كما تعرف، وستجد أن دولاً غير ملحدة هي التي تتصدر قائمة العطاء.»

«حتى من سموك باسمه كان لديه كنوز يجمعها له الإنس والجان ولم يُقال ويُكتب عنه أنه كان يوزع منها على الفقراء. ما قلته عن الصين صحيح، لكن لا تنس أنهم أكثر الدول تعداداً للسكان وأنهم حديثو نعمة لديهم أكبر عدد مليارديه في العالم ولكن حاجة بقية الشعب كبيرة ومقياسك هذا يحتسب التبرعات من الأفراد لآخرين ومساعدة الأفراد لأناسٍ غرباء عنهم.» التفت إبراهيم إلى سليمان وهو يقود سيارته مغادراً باب الجامعة. «والترتيب الذي تتحدث عنه قديم، فقد تسلقت الصين بسرعة من الذيل إلى المركز الرابع في قائمة العطاء الأحدث وسبقت كل الدول العربية.» أعاد إبراهيم تركيزه على السير لتجنب الحوادث تاركاً لصديقه فرصة للحديث.

«لو قلت لك أن الأخلاق في الدول الدينية أفضل مما هي في الصين، ماذا سيكون تعليقك؟»

«سأطلب منك أن تسأل جوجل عن مستوى نسب الجرائم في الصين وفي أي بلد آخر يحلو لك أن تقارن معه، جرائم السرقة والقتل والاغتصاب للإناث وللأطفال، وانتشار الرق والعبوديه، وشيوع الفساد والرشوة. دع جوجل يرشدك وأخبرني بالنتيجة.» انتظر إبراهيم وهلة مستغلاً انشغال سليمان مع شاشة هاتفه الذكي ثم سأل: «هل تعتقد فعلاً أن العرب أكثر اخلاقاً وكرماً من غيرهم؟» همهم سليمان بنعم

□□□ □□□□□□ .indd 52 □□/□□/□□□□ □:□□ □

من دون أن يرفع عينيه عن شاشة الهاتف، فأكمل ابراهيم: «يمكنني أن أطمئنك أن القوم هم الأكثر إسرافاً وتبذيراً في العالم، ولو أردت محاسبتهم بقوانين الإسلام والقرآن فهم إخوان للشياطين.»

«الآن أصبحت تستعمل القرآن لتقريع أهله..»

«يا رجل ذكرت لك مراراً أن لا مشكلة لي مع القرآن ، اللهم إلاّ أنه قابل لتأويلات متناقضة وبالتالي يمكن استغلاله لعمل الخير أو للانغماس في الشر وهذا ما حصل على مر تاريخ المسلمين.» بهذا التعليق من إبراهيم كف سليمان عن البحث في الإنترنت وعاد للقول إن العرب أكثر أخلاقاً وكرماً من غيرهم وطلب من صديقه أن يركز ناظريه على الشارع حيث تسبقهم سيارات من اليمين واليسار وتقذف بنفسها أمامهم. «هؤلاء كرماء وذوي أخلاق يا سليمان؟ أليست هذه القيادة قمة الأنانية؟» لم يجب سليمان فأكمل: «أصحابك كرماء في المناسف والبهرجة والهبل..»

«إكرام الضيف قمة الأخلاق، أتريد الآن أن تتهم الطائي؟»

«الطائي أهبل، وسيدك إبراهيم الذي ذبح لثلاث ضيوف عجلاً سميناً علماً أن سارة أخبرته بوجود نصف شاه في المطبخ، هو أيضاً من المبذرين، وكل حديث أو آية تسردها الآن للاستشهاد، سارد عليك بحديث أو آية تثبت العكس.» لم يترك إبراهيم لصديقه فرصة لسرد أي شئ واستطرد: «تعرف ما نشر ويقال هذه الأيام عن التبذير في بعض الدول العربية إلى درجة التباهي أن يُجلسوا كل ضيف من المعازيم لوحده أمام ذبيحة، وإن كلفة التخلص من نفايات الطعام 600 مليون لأن كل واحد في ذلك البلد يُنتج كيلوجراماً من فائض الطعام يومياً. ما لا تعرفه يا صديقي أن شخصية قانونية وافتائية اعترضت على مطالب عقاب هولاء المسرفين في الطعام لأن الإسراف يشمل أشياء أخرى ولا يمكنك معاقبة الناس على خياراتهم، والأهم أن قول الله: لا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين، حسب قول تلك الشخصية، يعني أن عدم الحب هو العقاب الوحيد للمسرفين ولا يمكن حسب هذا التفسير القول (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين.)»

□□□ □□□□□□ .indd 53 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الغازي

«ما لي أراك متنكداً هذا الصباح؟»

«اتصل معي قبل حضورك مسؤول عمال المزرعة، وأثناء حديثة عن مشاكل واجهته مساء الأمس تذكرت بعض مقولاتك عن الأخلاق، أو بالأحرى إنعدامها..»

«وزعلت يا سليمان لأنك تأكدت من صحة أقوالي؟» حاول إبراهيم بهذا التعليق تنفيس صمام غضب صديقه ليحدثه عن المشكلة في المزرعة التي اشتراها منذ سنوات لتكون خلوة له يطورها تدريجياً لتدر بعض الربح من إنتاج الزيتون وزيته.

«كنا نواجه في البداية، كما تعرف، مشكلة الرعيان الذين يحلوا لهم ترك ماعزهم تسرح وتأكل القديم والجديد من الأشجار، فأقمنا السناسل والسياجات المكلفة لردع ماعزهم والآن صار البعض يقفزون من فوق السياجات والبوابات يسرقون قصاص الأشجار وينقلونه بالسيارات. حين تصدى لهم الشيخ صالح أخبروه أنهم سيحملون الحطب بالقوة، أو خاوة، كما قالوا له حتى لو سال الدم.»

«طيب الدنيا برد يا سليمان والناس بحاجة لتدفئة..»

«بالله لا أتحمل المزاح الآن..الحمد لله أن الشيخ لم يَصعد معهم وذهب إلى أهلهم شاكياً ومؤنباً وحل الإشكال بتعهدهم ألاّ يكرروا السرقة، لكني أشعر بالقهر من هؤلاء الناس لا يحترموا الملكية الخاصة ولا يخافون من الشرطة والقانون ويجادلونك في أموالك..»

«أحمد ربك يا سليمان انك لست في بلد آخر الآن، هناك يضع المجاهد يده على سيارتك أو بنتك أو حمارك ويقول الله اكبر ثلاث، فتصبح له ويأخذها ويسير بحماية الكلاشنكوف ليصلي في الجامع.. هنا يمكنك تخجيل

.indd 54

العربان على الأقل. لو سألت الشيخ صالح سيؤكد لك أنه يرى الجماعة كل صلاة جمعة. الصراع بين الفلاحة والبداوة لا زال على أشده لدى البلاد المسلمة كون ذوي الأصول البدوية يستندون إلى نهب الغزوات، وتغطية حاجتهم على حساب الآخرين، ويعتقدون أنهم متدينين وأن امتلاكهم الأخلاق بديهي ومرتبط مع هوية الصفة الإسلامية، ولا يرون أن العالم كله قد تجاوز مرحلة الرعي والتحطيب.» بقي سليمان صامتاً رغم إتاحة صديقه فرصه ليعلق، فقد كان يسعى لفهم هذه الظاهرة لأناس يركبون السيارات ويستعملون نتاج التقنية ولكنهم يعيشون بنفسية العصر الرعوي التحطيبي. «الديانات تدعي أنها صنعت ونظمت الأخلاق، ولكنك كما ترى على صعيد جيرانك في المزرعة وعلى صعيد الدول المجاورة أن النهب والسرقة والقتل والحروب والذبح والسلخ والتعذيب والقهر وغير ذلك، يتم الآن كل لحظة باسم الدين وبمنظوره، لأن الديانات كلها توحي لمنتسبيها بوهم التحلي بالأخلاق. ايضاً لا تقدم الأديان أي فرص لتطور مصاحب للعصر، فجيرانك في المزرعة أو البلاد المحيطة يسعون لتطبيق أخلاق يعرفون أنها سادت قبل الآف السنوات، ويدعون أنها صالحة لكل زمان ومكان.»

«يعني تلف وتدور وتلصق المُبيقات في الدين.» قال سليمان وهو يتوقع من صديقه الاستشهاد ببعض الآيات التي تذم الأعراب وأهل القرى، لكن إبراهيم سأله عن تأخر الشاي وإذا كان وحيداً في البيت.

«يا صديقي لا ألف ولا أدور عليك أو على الديانات، الأمر وما فيه أن الأخلاق شئ متطور مع الزمان والمكان، وهي قوانين بشرية ابتكرت للحاجة قبل ابتكار الديانات، والمعضلة أن الأخيرة اقتبست الأخلاقيات التي سادت زمن نشأتها وجمدتها للآن كحقائق ربانية. لكنها لم تعد صالحة للتماشي مع التطور التقني والصناعي الذي يسود الكثير من المجتمعات، ولهذا تخلق الأديان فكرة هم ونحن، وتؤسس لتواصل العداء والحروب سواء بين المجتمعات المتطورة والأخرى المتخلفة، أي المتسامحة والمتدينة، أو بين جماعات المجتمع الواحد إذا كان تطورهم غير متناسق كما هو الحال بينك كابن جماعة فلاحية مواكبة العصر وبين جيرانك أبناء البدو والرعاة.»

□□□ □□□□□□ .indd 55 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«لكن الديانات كلها أكدت على عقاب القتل والكذب والسرقة والاغتصاب وغير ذلك من أنواع الشرور، وليس ذنب الديانات مخالفة الناس لهذه التوصيات.» قال سليمان بعد أن تناول صينية الشاي من زوجته على باب الغرفة.

«هذه الشرور كانت قبل الديانات وحرمتها المجتمعات لتحمي ذاتها وتماسكها، كل ما يهدد تماسك وأمن الجماعة يُحرمٍ ويعاقب عليه.» تناول إبراهيم كأس الشاي وعاد للحديث: «القتل مثلاً، إذا مارسه فرد من الجماعة ضد آخر فهذا يؤدي للثأر المتبادل وإبادة الجماعة ككل، ولذلك لا بد من عقاب للقاتل الأول لضمان استمرار تماسك وسلامة الجماعة. لكن القتل لو كان لمصلحة الجماعة، مثل قتل عدو خارجي فسيعتبر عمل بطولي يحتاج لمكافأة. الشئ ذاته يمكن أن يطبق على أنواع جرائم أخرى، اغتصاب الأعداء، ونهبهم وخطفهم وسبيهم. إذن الأخلاق نتاج مجتمعي ولابد أن تكون قابلة للتطور، ولهذا ترى بعض المجتمعات المتدينة الآن ترفض الأخلاقيات الجديدة في مجتمعات متسامحة وتعتبرها كفراً وتستحق العقاب، بينما تستغرب المجتمعات متطورة الأخلاق كيف يعيش الناس في بلدان تطبق القوانين والأخلاق الدينية المتجمدة من زمن سحيق.»

«يا ليتني لم أخبرك عن عبث الرعيان ولصوص الحطب.»

«هون عليك يا صديقي ولا تغضب مني أو من جيرانك فهم أيضاً يقطعون الأشجار الحرجية والغابات غالية التكاليف على مرأى من الجميع، ولا يأبهون لتحذيرات من قمة مستويات الدولة . . قانونهم أنا ومن بعدي الطوفان.»

□□□ □□□□□□ .indd 56 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المنجمون

«في بغداد تملأ محلاتهم الشوارع ولديهم حراسات مسلحة، وفي مصر يجمعون من الناس ١١ مليار جنيه سنوياً وهناك واحد منهم لكل ١٢٦ مصري، بينما هناك طبيب لكل ٨٠٠ مواطن، والأردن لا يخلو منهم، والأشهر هم سحرة المغرب كما يقال، وأهل الخليج هم زبائن دائمين لأمثال هؤلاء في كل مكان..» استمع سليمان لصديقه بانتظار أن يطرح عليه السؤال الذي، كالعادة، سيضع اللوم على الدين. وهكذا كان: «.. هل بوسعك معرفة سبب هذا الانتشار الواسع للخزعبلات والشعوذة؟«

«كنت أظن أنك ستتهم الإسلام، ولكن طالما أنك تسألني، فاعتقد أن الفقر واليأس والجهل إذا اجتمعوا فاستراحتهم الأهم هي مقهى الخزعبلات.»

«لا أتهم الإسلام جزافاً ولا أخصه في هذه الحالة، فالسحر والشعوذة أصلها أديان قديمه وأدمجتها اليهودية في تعاليمها، ثم انتشرت بين الأقوام المسيحية بشدة في العصور الوسطى، ولا زال كل المؤمنين يعتقدون في الغيب والغيبيات ولديهم استعداد لتصديق وجود السحر والجن والجان والعفاريت والشياطين وكل ما له ذكر سلباً أو أيجاباً في الكتب السماوية..»

«يعني لو شجب القرآن السحر والجن والشياطين فإنه مع ذلك المسؤول عن انتشار الظاهرة الآن بين الأمة الإسلامية بكل أطيافها؟ هذا ما تريد قوله.» قاطع سليمان استنتاج صديقه ابراهيم.

«لا تتسرع في الحكم على ما أنوي قوله يا سليمان. الديانات أخذت في الأصل السحر والشعوذة عن ديانات وأساطير سبقت، في بابل ومصر وآشور، من هناك وصلت هذه الأمور للديانات السماوية.» حدق إبراهيم في عيني سليمان وكأنه يريد تنويمه: «سواء كان الانتشار الواسع الآن

□□□ □□□□□□ .indd 57 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ناتج عن ارتباط بالدين السماوي، أو استمرار لسطوة الديانات الأصل، فهذا ليس في صالح أي دين الآن، خصوصا ليس في صالح الأمم التي تظن أنها متدينة، وسحرة هذه الأيام يتقمصون الدين، والزبائن يعتقدون أن الدين يسمح لهم بذلك، وغالبية المسلمين يصدقون هذه الخرافات.»

«كيف تؤكد أن الغالبية تصدق ذلك؟ هل لديك إحصائيات؟»

«لا تعتقد انك أفحمتني، فهناك إحصائيات بالفعل ولكنها تقلل من النسب، لكن اسأل نفسك وستعرف الحقيقة. هل تخلو عائلتكم من هؤلاء؟ كم أم علقت خرزة زرقاء على صدر ابنها لحمايته من العين؟ وكم مرة ذهبت أمك أو إحدى قريباتك للفتاحة؟ وكم مرة قرأتم الفنجان في البيت؟ وكم عانس بحثن لديهم عن عريس أو فك العمل الذي يعيق زواجها، وماذا عن العرسان في ليلة دخلتهم، وكم واحد في عائلتكم لديه الجرأة للتجول ليلاً في الظلام..» كان إبراهيم يستعرض العادات الخزعبلية بينما شرد ذهن سليمان إلى احدى قريباته التي أنفقت نقود زوجها وهي تبحث عن الذهب المرصود تحت بيتهم وتشتري أغلى أنواع البخور المغربي لهذا الغرض، حتى أفاق على صوت إبراهيم: «..حتى أنت، ألا تطالع برجك يومياً في النت؟»

«أنا متأكد يا صديقي أن لديك تفسيرات أخرى لهذه الظاهرة ولكنك لا تدخر وسعاً لجلد الدين. تريد للأديان أن تكون خزعبلية أو اتهام المؤمنين بأنهم على هدى الأديان الأقدم. أعرف أنه لم يكن في عهد صدام أي ممارسة رسمية أو سرية لهذا الهبل، وفي مصر تنامت هذه الظواهر مع عهد السادات ثم تركها مبارك تأخذ مداها طالما أنها بعيدة عن السياسة والحكم. بالنسبة للحكام أفعل ما تريد طالما أنك بعيد عنهم، ولكن هذا بالضبط ما يؤدي للفساد والفقر واليأس، أي لخلق البيئة التي تنمو فيها الشعوذة.. أنا متأكد أن تشريع قانون يُحرم هذا وتطبيق صارم من الحكومة للقانون سينهي هذه الظاهرة، وحينذاك لن ينتهي الدين لأنه في غنى عن هذه الشوائب.» توقف سليمان واعتلت الابتسامة وجهه بعد أن قفز لذهنه سؤال طرحه فوراً: «أصحابك في الصين، أليسوا أكثر من يؤمن بالخزعبلات المغطاة تحت ثوب الأعشاب، وهم قوم ملحدون رسمياً؟» رفع إبراهيم يديه للسماء مستنجداً وموحياً أن سليمان لم يفهمه، ولكنه لم يدل بأي تعليق.

.indd 58

الشيطان

«اليأس، كنتيجة للفقر وللجهل ولضغط الحاكم، هو الذي يدفع الناس إلى أحضان الدجالين متقمصين ثوب الدين زوراً وبهتاناً.» قال سليمان لصديقه استكمالاً لحديثهم من اليوم السابق. «الدين لا علاقه له بالأمر بتاتاً وحين يأتي القرآن على ذكر السحر فأنما ليشجبه..»

«لكن شجب الشيء يعني التأكيداً على وجوده..» قال إبراهيم بهدوء ظاهر، فتأكد سليمان أن صديقه أعد العدة لاستكمال هذا الحوار. «.. هل لك أن تقرأ علي أي شيء من القرآن لو سمحت ؟»

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم ..» أشار إبراهيم لصديقة أن يتوقف عن بدء التلاوة ولفت انتباهه إلى التعوذ من الشيطان. «.. نعم كما قلت لك نذكر السحر وأعوانه من الشياطين والأبالسة والجن لنشجبهم، وكما سمعت فإننا نتعوذ بالله منهم.»

«هذا جيدٍ ومعناه أنك تعترف بوجودهم سواء كان هذا الوجود خطراً أو خيراً على المؤمنين الذين عندما يقنطون كنتيجة للظروف يسهل عليهم اللجوء إلى السحر لحل مشاكلهم، وهذا كان حال البشر قبل نشأة الأديان التوحيدية، بل الإنسان آنذاك خلق الآلهة لتحمية من شرور ما يخيفه ويضره..»

«..أنت سرحت بعيداً يا إبراهيم ولا أدري ماذا كنت تقرأ بالأمس لتخرج بهذه النتائج..»

«.. بصراحة كنت أبحث في القرآن ، ووجدت سورة كاملة عن الجن، وكلمة الجن ذكرت إثنتين وعشرين مرة، والجان سبع مرات، والشيطان ثماني وستين مرة، وكلمة الشياطين سبع عشرة مرة. وكما تعرف أن السحر يحتاج لهؤلاء وإذا أردت إنكار وجود للسحر فعليك

□□□ □□□□□□ .indd 59 □□/□□/□□□□ □:□□ □

إنكار وجود الجن وأصدقائهم من الأنواع الأخرى المذكورة في القرآن. لذلك أجبني مباشرة إذا كنت تؤمن بوجودهم أم لا ؟»

«لم أر أي منهم، ولا أرغب في ذلك..» قال سليمان ثم تلا من الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القرآن﴾ ومن الأنعام : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ومن الرحمن: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأرض فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ومن الجن: ﴿ وَأنه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.. وهناك المزيد في القرآن عن ذلك ولهذا يصعب علي بصراحة إنكار وجودهم.»

«أحسنت يا صديقي فهذا ما يعجبني بك، إيمانك الأعمى ومع ذلك أنت تحاول التعمق والاطلاع. هل لك أن تفسر لي معنى: فزادوهم رهقا؟»

«أظن أن التفسير الذي طالعته عن ابن كثير يقول إن رجال الأنس يتعوذون من الجن خوفاً منهم، فزادهم الجن ترعيباً وتخويفاً رهقاً، أي هناك علاقة رعب بين الطرفين بالرغم من مخاطبة القرآن لهما سوياً.» قال سليمان وعاد ليؤكد أن القرآن لا يقر بالسحر ابداً، هو يذكر السحرة من الأزمان السابقة ولكنه يبين وهن مقدرتهم. فحين يتحدث عن سحرة فرعون يقول: ﴿... فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أنها تَسْعَى﴾ أي خداع بصري وربما فنون كيميائية إذ قال الطبرسي عن أولئك أنهم وضعوا الزئبق في الحبال فلما حميت الشمس تمدد الزئبق وحصلت حركات الحبال كأنها ثعابين تسعى.»

«ممتاز..» قال إبراهيم «..القرآن بالفعل يعارض السحرة ويفند أفعالهم، ولكنه أيضاً يتحدث بصراحة ووضوح عن وجود الجن والشياطين ولا تنسَ إبليس الذي يتوجب على الحجيج رجمه، وهذه العصابة هي التي تخالف الله ويمكنها دعم أعمال السحر سواء مقابل بدائل أو تقوم بما يطلب منها تسخيراً. والسبب في ذلك يا صديقي أن العرب في الجاهلية كانوا يؤمنون بوجود هذه الأشياء ويستعيذوا بآلهتهم

□□□ □□□□□□ .indd 60 □□/□□/□□□□ □:□□ □

منها في كل مناسبه يستشعرون فيها الخوف، ولذلك توجب أن يشير القرآن لهذه الأشياء لأنه لو أنكرها عليهم جملة وتفصيلاً كما أنكر أشياء أخرى، لما التحق العرب بالإسلام جماعات. هكذا أقر لهم بوجودها وأنكرعليهم فعاليتها في السحر، وهاهم المسلمون الآن يعودون إلى الربط بين الجن والسحر حسب رؤيتهم الجاهلية..» صمت إبراهيم قليلاً ثم شرح لصديقه إن الرابط بين الجن والسحر لم ينقطع يوماً لدى المسلمين ولكنه حيناً يقل وحيناً أخر يزداد حسب الوضع الاجتماعي والسياسي السائد «ولا تنس أن المسلمين الأوائل تداولوا قصة أن اليهود سحروا النبي فأصبح لوهلة لا يعرف إذا كان قد عاشر نساءه أم لا حتى فكت الملائكة هذا السحر.»

□□□ □□□□□□ .indd 61 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 62 □□/□□/□□□□ □:□□ □

قسمة

□□□ □□□□□□ .indd 63 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المتعوس

«أنت رجل كريم وحكيم ولست بحاجة إلى مديح..» قال له صديق في جلسة مسائية تضم أهل وأصدقاء «..وقريبك أبو عبدالله بحاجة لدعم أو عمل.» لم يكن أبو عبدالله قد وصل إلى المكان بعد وهذا ما شجع الصديق على التوسط بطلب المساعدة له.

«وحياتك عندي أنني حاولت مساعدته مراراً، لكن الرجل غير مرزوق، ومهما فعلت له ومعه سيبقى على حاله.» تململ البعض في الجلسة ممن لا يعرفون ماذا فعل الرجل لقريبه المتعوسن فقال لهم: «أنا لا أحب في العادة توزيع النقود بدون مبرر، يعني لو اشتغل أو تاجر أو عمل شيء يكون أفضل، لكن عشان خاطركم ساقدم له مبلغاً من المال ونراقب ونرى ماذا سيفعل به.»

«الرجل عفيف وربما يرفض قبول مبلغ نقدي.» قال أحدهم.

«لا بأس، سترون الآن صحة قولي.» أخبرهم ذلك وتناول محفظة ووضع فيها مبلغاً من المال وطلب من أحدهم أن يضعها بين الباب ومكان جلوسهم بانتظار وصول أبو عبدالله حتى يراها فيأخذها وتكون في النهاية من نصيبه لأن أحداً لن يدعي أنها محفظته.

فُتح الباب وانتصب أبو عبدالله يطلق التحية على الجالسين من بعيد، فهللوا ترحيباً ودعوه للتقدم ليرى المحفظة أمامه. «ويش رأيكم يا رجال اجيلكم وأنا مغمض عينيه؟» إرتفعت الأصوات رافضة اقتراحه، ولكنه أصر وأغمض عينيه وتقدم إليهم ووصل بنجاح بينما انقسم الجمع بعضهم يستغفر الله وآخرون يرددون أمثلة عن القسمة والنصيب وغيرهم يضحكون بينما صاحب المال يوزع النظرات على الجلوس ويخبرهم «المتعوس متعوس لو حملوه فانوس.»

□□□ □□□□□□ .indd 64 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الذهب

لاحظ من بُعد أنهما منغمسان في الحديث فاقترب بهدوء وألقى التحية وجلس معهما في ظل زيتونة يصعب تقدير عمرها. كان علي يعرف القادم ولكنه لم يرحب به باسمه أو كنيته. «أهلاً بالمعلم» قال ومهد له مكاناً على الأرض يُمكنه من إسناد ظهره إلى جذع الشجرة بينما الابتسامة تملأ وجهه. «هذا أبو مجاهد الفلاني، يروي ما حدث مع أبي ليث.» قال علي وصمت ليتيح لأبي مجاهد الاستمرار في الرواية، وفهم الزائر مغزى ترحيب علي له بالمعلم وليس باسمه.

«سحب أبو ليث المسدس على شريكه وخيره بين الموت أو قبول حصة صغيرة..»

«حصة من ماذا ؟» سأل الزائر المتحدث.

«عشرة صناديق ذهب عثر عليها أبو ليث وشريكه وكان أبو مجاهد يراقبهما من مخبأ ويسمع كل كلمة.» قال علي مجيباً وملخصاً بعد أن لاحظ تردد الراوي في الإجابة، وقال لأبي مجاهد: لا تقلق المعلم مؤتمن.

«قال الشريك لأبي ليث: الله ما بيني وبينك. لا أريد أي شيء من الذهب، الله يسامحك، الله الغني. ثم ابتعد وهو يسير بالعكس حتى لا تفارق عيونه وجه أبو ليث وحتى لا يعطيه ظهره.»

«خايف أبو ليث يطخه في ظهره، صح» سأل علي المتحدث وحصل على إجابة بالتأييد مع إضافة أن الذهب ملعون وملوش صاحب. «قلت في بداية الحديث أن الوقت كان أقرب إلى المغرب؟» مجدداً جاء التأييد من أبي مجاهد.

«أنا مكثت بهدوء تام، لأنه لو لمحني رحت فيها.» قال الرجل ونظر إلى وجه المعلم فلم يخرج بانطباع محدد من مراقبه تقاسيمه. «والله بعد شوية وإذا بالشرطة العسكرية كابسه على المكان. حملوا الصناديق

□□□ □□□□□□ .indd 65 □□/□□/□□□□ □:□□ □

وأخذوا أبا ليث وذهبوا.»

«شريكه بلغ عنه!»

«أكيد وإلاّ كيف عرفوا وحضروا بهذه السرعة.» علق أبو مجاهد على استنتاج علي.

«غريبة شوية هذه الاحداث، لماذا ترك أبو ليث شريكه يخرج من المكان بسلام؟ ولو كنت أنا مكان الشريك لقبلت بحصة قليلة أفضل من ضياع كل شيء.» قال المعلم للراوي ثم نظر في عينية وأضاف: «لو كنت أنا مكانك لاتصلت بالشرطة وفزت بنصيب الواشي وخدمت ميزانية البلد.»

«يا خوي ميزانية البلد منهوبة، والدولة لا تعطي مكافآت على التبليغ. بعدين أنا كامن بدون صوت. لو كنت أنت أبو ليث وسمعتني اتحدث، شو راح تعمل؟ ها؟»

«لقد شاهدت أبو ليث بالأمس في السوق، ولم أسمع قبل ذلك أنهم اعتقلوه!» قال المعلم وهو ينظر إلى علي الذي اتسعت ضحكته المكتومة بين ارنبتي أذنيه.

«يا أخي النقود تفعل المستحيل، يمكن رشاهم، أو تقاسموا الذهب.»

«شوف يا أبو مجاهد..» قال علي وهو يضع يده على كتف الرجل «.. أنا على تواصل يومي مع أبي ليث منذ سنوات، وأؤكد لك أن من شاهدته لا يمكن أن يكون من تظنه، ويمكنني إثبات ذلك متى تشاء.»

«يا رجل، هل أنا غشيم عن أبي ليث وعن سيارته الجيب التي لا أخت لها في كل البلد وكان يحمل الذهب فيها وأنا أراه عن قرب كما أراك الآن.» أكد أبو مجاهد لعلي وللمعلم.

«لقد حصلت معي قصة مشابهة تماماً..» قال علي مواسياً المعلم «تحدث أحدهم عن جرار ذهب نقلت من مكان بناء ثم توقف العمل هناك. بعد التدقيق اتضح أن الموقع المذكور كنت أنا مقاوله وتوقف البناء لأسباب مالية..» ضحك علي وأضاف: «..لقلة المال وليس لكثرته.» نقل علي ناظريه إلى الأفق خلف أبو مجاهد وعاد ونظر للمعلم، وهنا استدار أبو مجاهد للخلف وشاهد الجيب إياه، ثم عاد ينظر للمعلم ويستدير للتأكد من السيارة. لم ينبض بحرف ولكنه ارتفع على ركبتيه ثم قدميه واستدار يتكتك الرمل عن عباءته.

□□□ □□□□□□ .indd 66 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المرزوق

«غير لنا هالبيت يا ولدي الله يرضى عليك.» قالت الأم لولدها ميسور الحال. لقد اكتسب ثروته بعرق جبينه ومثابرته، ولم يرث من والده سوى النصائح وحسن التربية. كان يتمنى لو أمد الله في عمر والده ليتمتع معه في رغد العيش، وهكذا لم يتبق أمامه سوى إرضاء الوالدة دوماً.

في ذلك اليوم شاهد قطعة أرض على شارع جانبي تتسع لعدة بيوت، فسأل عن صاحبها وتعرف عليه وأخبره عن رغبته في شراء الأرض. «على الرحب والسعة، هذه القطعة ثمنها عشرة ملايين ريال.»

«كثير يا شيخ اعطيني سعر أفضل الله يفتح عليك.» قال الإبن وهو يعلم أن الشيخ بالغ في السعر، لكن الأخير أصر على طلبه، فافترقا.

«اشتريت الأرض يا ولدي؟» سألت الأم ولدها بعد أسبوعين، فأخبرها أن صاحب الأرض بالغ في السعر، ولكنه سوف يفاوضه مجدداً فربما يخفض السعر طالما أن الأرض لم تباع بعد. «الله يجيب اللي فيه الخير يا ولدي.»

بعد عشرة أيام أخبر الإبن والدته أنه راجع صاحب الأرض، وأنه طالب بمليون زيادة «يعني رفع السعر عشرة بالمئة في أقل من شهر.. هذا طمع» قال الإبن وأضاف أنه سيبحث عن قطع أراضي غيرها.

طوال شهر آخر تفحص الإبن أراضي أخرى في مواقع مختلفة، فلم يوفق في العثور على شيء مناسب. عاد لصاحب الأرض يفاوضه ويطالبه بالتخفيض لكن هذا طالب بمليون آخر إضافي على السعر فأصبحت الزيادة عشرين بالمئة في شهرين. هكذا افترقا من دون اتفاق.

استمر سؤال الأم ومعه البحث عن قطعة أرض أخرى، ولكن كل

□□□ □□□□□□ .indd 67 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الشواهد تشير إلى ملائمة قطعة الشيخ، فهي قريبة من منطقة سكن الأم، وقابلة لبناء أكثر من بيت يمكن أن يسكنها إخوته وأخواته وأقاربه. لم يعد الإبن يفكر في خفض السعر ولكنه أخذ يسأل ذاته ماذا لو ذهب للرجل ووجده يطالب كالعادة بمليون أخرى زيادة ؟ هل سيعطيه السعر أم ينسحب مجدداً وينسى أمر هذه الأرض تماماً ؟ «هذا الشيخ إنسان مرزوق من رب العالمين..» تمتم وهو يفكر في الأمر.. «يبدو أن الله أعمى أقماري لحكمة بدأت تتضح لي الآن.. ربنا يريد أن يرزقه ثلاثة ملايين إضافية، وإن شاء الله سيتم تعويضي بأكثر من هذا المبلغ.»

«هل تبيع بعشرة مليون يا شيخ؟» سأل الإبن بعد أن انتهي من فنجان القهوة.

«أنت تعرف السعر يا صديقي.» قال الشيخ وسكت.

«إحدى عشر أو اثنى عشر؟»

«بل هي ثلاثة عشر الآن.»

«لك ذلك، لن أجادلك ولن أعطيك فرصة للزيادة.» قال الإبن واتفق مع البائع على تفاصيل الدفع وتمت الصفقة، ثم توجه لزيارة والدته ليخبرها بالأمر، فباركت له بالأرض ودعت ربها أن يجعلها خير على ولدها. في غضون عام انتهى الابن من بناء خمسة بيوت أسكنها أحباءه، وبعد خمس سنوات تحول الشارع من سكني إلى تجاري، فاشترى قطعة أرض أخرى وبنى فيها مساكن للأحباء وأصبحت البيوت تؤجر وتجلب مداخيل مضاعفه، فتعزز إيمانه بالله الذي رزق الشيخ ورزقه.

□□□ □□□□□□ .indd 68 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الجوع

تنحدر الطريق بشدة لعدة كيلومترات من مبنى الجامعة، حيث سكن الطلاب أيضاً، حتى أقرب سوق. فكر أنه إذا لم يجد ما يجمعه من بقايا طعام هناك، فالأفضل توفير الطاقة المهدورة هبوطاً وصعوداً وبالتالي البقاء جائعاً غير منهكاً واستغلال الوقت في الدراسة. كان يعرف الأسواق وصعوبة الحصول على أي شئ فيها مجاناً، فالرز يباع مطبوخاً بارداً بالكيل، البطاطا والطماطم وكل الخضار والفواكه تباع بالحبة. طبعاً لا يوجد في السوق أي سلعة طازجة مستوردة. أيضاً السمك المحلي المدخن يباع بالقطعة بعد أن تنهشة لأيام عشرات الآلاف من الذباب. حزم الخشب الصغيرة هي الشئ الوحيد الذي يباع بالجملة إذ تكفي الحزمه لغلي إبريق شاي. السوبر ماركات اللبنانية كانت تمثل الجنة بالنسبه له ولغالبية مواطني سيراليون، معلبات وسلع طازجة مستوردة ولحوم وأجبان مصنعة أشكال وألوان .. كل ما هو متوفر في محل بباريس تجده تقريباً في هذه السوبرماركات المنتشرة في العاصمة فري تاون، لكن السعر فلكي بالنسبة للسكان، اللهم الأجانب وتجار الماس والمرتشين من الحكومة ورجال البنوك. بالطبع لا مجال على الإطلاق لعقد مقارنات بين السوق المحلي وأي من هذه السوبر ماركات، فالسوق للمحليين أما المطاعم والبضائع المستوردة فهي للأجانب ومن يتعامل معهم.

دخل والده من الوظيفة الحكومية يسد رمق العائلة لأن الوظيفة تؤمن له سكن مجاني ضمن مجمع للموظفين. غرفة نوم وصالة تحول طرفها إلى مطبخ، أما الحمام فخارجي مشترك يجب السير إليه مسافة غير مسقوفة لاستعماله في أي وقت ومناخ. هكذا لم يتمكن والده من اقتطاع أكثر من أجرة غرفة الطلاب في الحرم الجامعي التي يتقاسمها مع صديق أفقر منه. كانا يشاركان في المحاضرات ويعودا إلى الغرفة

□□□ □□□□□□ .indd 69 □□/□□/□□□□ □:□□ □

للمطالعة حتى ينتهيا من التعليم في أقصر فترة وبأحسن درجات. عندما كانا بالصدفة يلتقيان زملاء في استراحة الغذاء يتناولون بعض السندويتشات ويدعونهم للمشاركة معهم، كانا يدعيان أنهما أكلا للتو، بينما الحقيقة أن معدتيهما لم يدخلها سوى الماء منذ أيام. أحيانا كانا يمضيان أسبوع كامل بدون تناول الطعام.

بعد خمس سنوات على التخرج أستقر به الحال في لندن، تزوج وأنهى دراسة إضافية، ماجستير اقتصاد، في أشهر معاهد بريطانيا، ورزق بطفلين، وأصبح لديه بيت اشتراه بقرض بنكي، ولديه وظيفة جيدة في أهم منظمة حقوق إنسانية. يأكل كميات جيدة من الطعام بأنواعه ثلاث وأحيانا أربع مرات في اليوم، لكن وزنه لا يزداد كما يتمنى، فجسده لم يتغير منذ زمن الجوع، ولم تثبت الفحوصات أي مرض أو وضع غير طبيعي لديه . . كل شئ على ما يرام ولكن جسمه يرفض الزيادة.

□□□ □□□□□□ .indd 70 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المحتاج

في منتصف طريق العودة من المكتب إلى المنزل استجاب أبو محمد بعد تردد لرنين الهاتف إذ كان عازماً على استراحة بعد الغذاء، وفي العادة تكون الاتصالات في هذا الوقت محملة بالمنغصات. فرح جداً لسماع صوت صديق لم يراه منذ مدة. "أنا متجه إلى الميناء الآن قابلني هناك لتختار أفضل ثلاجتين سمك"

استجاب أبو محمد لنداء صديقه الذي يملك عدة مراكب صيد، واستدار بالسيارة إلى طريق الميناء. تذكر أن أحد أصدقاء المرحوم والده يسكن على الطريق، فقرر أن ينتهز الفرصة لزيارته وتناول كوب شاي في منزله خصوصاً وأن الرجل أصيب بشلل من جراء جلطة لم يتعافَ منها.

مر بجامع فتذكر أنه لم يصلي الظهر، ولكنه قرر مواصلة المسير فلا زال هناك الكافي من الوقت على موعد صلاة العصر. مر بجامع آخر ولكن هاجس ما منعه من التوقف هناك أيضاً، حتى وصل إلى جامع ثالث. ترك سيارته على الطريق أمام الجامع فوجد الباب مغلقاً. استدار مشياً حول الجامع بحثاً عن باب آخر. شاهد مقهىً صغيراً فأتجه لشراء زجاجة ماء، فإذا به يرى صديق والده جالس هناك على كرسي متحرك. تحادثا عن الأحوال، فعرف أبو محمد أن الصديق يخرج من البيت لأول مرة منذ شهر إذ طلب من ابنته أن تخرجه فجلبته إلى هنا بسيارتها على أن تعود له لاحقاً.

في طريقه إلى الميناء مر صاحب المراكب بالجامع وتعرف على سيارة أبو محمد على قارعة الطريق فتوقف للاستفسار. دار حول الجامع فوجد الرجلين يحتسيان القهوة، وحدثه أبو محمد عن الصدف التي أدت إلى هذا اللقاء. «هذا الرجل له نصيب مقرر من الله في السمك.» قال صاحب المراكب واتفق مع صديق والد أبو محمد كيف يوصل له ثلاجتين من السمك، ثم دخل الثلاثة المسجد لصلاة الظهر.

□□□ □□□□□□ .indd 71 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 72 □□/□□/□□□□ □:□□ □

روحانیات

□□□ □□□□□□ .indd 73 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 74 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الحلم

أفاق منزعجاً ثم أغلق عينيه بسرعة يريد العودة إلى الحلم. رأى في المكان ذاته أناس يعرفهم وعاش بينهم قبل خمس عقود، كانوا آنذاك أكبر منه سناً وعلى الأرجح جميعهم انتقلوا إلى الحياة الأخرى.. هو لا يؤمن بالحياة الأخرى ولكن هذا الحلم جدد أفكاره حول اللاطبيعي. رأى في الحلم أنه يعود إلى مهد صباه، لم يكن المكان مشابهاً ولكنه كان يعرف أنه ذات المكان، فقد وصل إلى هناك بعد إجراءات سفر ووجد ذاته يترجل من سيارة له في السوق وهو يحمل حقيبة صغيرة. اتجه تلقائياً إلى دكان لم يكن لأهله في السابق، ولا كان والده يتردد عليه، لكنه شاهد والده المتوفى منذ ثلاث عقود يقف في باب المحل، أو بالأحرى شاهده والده الذي غضب لرؤيته وأمسك بمكنسة كانت على الباب ولوح بها بغضب طالباً منه العودة من حيث أتى «أنت أيش جابك هان؟ انصرف فوراً» قال له والده وهو يلوح بالمكنسة.

تعجب من هذا الاستقبال وشعر بخزي وإهانة كون الحب القوي المتبادل كان يحكم العلاقة بينهما، وكان والده يفضله من بين إخوته وأخواته الثلاثة عشر. استدار إلى الخلف قبل أن يستقل السيارة فشاهد والده لازال غاضباً بينما آخرون ممن كان يعرفهم في الماضي يجلسون من دون أي تدخل أو تعليق.

أفاق من الحلم قبل أن يتحرك بالسيارة، فعاد لإغماض عينيه يريد العودة والتحقق من دواعي هذا الموقف، عاد للحلم لكنه لم يفلح في المهمة. شاهد بعض من كان يعرفهم ينظرون إليه مرة وإلى والده أخرى. أفاق مجدداً وفتح عينيه غاضباً من الفشل ومن محتوى الحلم. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف ليلة الخميس وتعلن الدقائق الأولى ليوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان. هدأت نفسه تدريجياً وعاد يفكر

□□□ □□□□□□ .indd 75 □□/□□/□□□□ □:□□ □

في برنامجه المقرر لهذا اليوم، ثم استسلم للنوم مجدداً. كان في أجازة منذ أسبوع على شاطئ جزيرة قبرص يقضي يومه مستلقياً على الرمال وكلما اشتدت الشمس يسبح قليلاً ليبرد جسده. وفي أوقات أخرى يتبضع أو يتجول في المتاحف والأسواق والقلاع ويبحث عن الآثار الإسلامية في هذا الجزء اليوناني من الجزيرة.

مر بخاطره أنه زار بالأمس الأربعاء ضريح أم ملحان، إحدى محارم الرسول عليه الصلاة والسلام، والتي شاركت في أول غزوة بحرية على الجزيرة ووقعت عن بغلتها أثناء النزول واستشهدت. أقام لها المسلمون هناك ضريحاً، وبعد مرور قرون من الزمن بنى الأتراك بجانب الضريح جامعاً جميلاً ووضعوا جثمانها في ضريح وسط المسجد الذي يعتبر بمثابة كعبة لسكان قبرص المسلمين، ولكن زواره الآن قلائل بعد انقسام الجزيرة. هذا الجزء القبرصي اليوناني يحتوي أيضاً على مساجد أخرى كثيرة لا زالت تُزار وتستخدم للصلاة إذا كانت داخل المدن، بينما مسجد أم ملحان يقع في بقعة جميلة نائية على شاطئ بحيرة الملح التي كانت جزءاً من البحر ثم انفصلت عنه وأصبحت مالحة جداً بفعل التبخر.

صباح الجمعة أفطر بطيخاً وجبنة بيضاء مالحة، وحمل الثلاجة الصغيرة بالسندويتشات وزجاجة مياه وانطلق بالسيارة المستاجرة إلى الشاطئ. لم يكن يفكر قبل الحلم في والده أو أي شئ آخر، كان يستمتع بيومه ويعيش ساعاته باسترخاء تام، وهاهو الآن يتخلص تدريجياً من ذكرى الحلم ولا يشغل باله سوى بالثواني القادمة من يومه، هل يستلقي أم يسبح أو يسترق النظر على جيران الشاطئ .. منذ وصوله إلى الجزيرة صار يشغل نفسه بمحاولة التفريق بين اللغة الروسية واليونانية عندما يستمع للناس من حوله، واستغرب من كثرة الروس في الجزيرة.

في مساء يوم الجمعة وصلته رسالة واتساب من صديقة ونسيبه تعزيه بوفاة أخيه الذي يقطن بلداً ثالثاً. كان أخوه يكبره بأربع سنوات ولكنه يعاني من القلب منذ خمس سنوات على الأقل، وقد كان الجميع يحمدون ربهم على كل يوم إضافي في حياته حتى توفى في المستشفى في الدقائق الأولى من صباح الجمعة الأخيرة في رمضان. صدمه الخبر ولماذا لم

□□□ □□□□□□ .indd 76 □□/□□/□□□□ □:□□ □

يخبره أحد طوال اليوم، ولكنه تذكر أن هاتفه لم يعمل في الجزيرةٍ وأن طريقة التواصل كانت فقط عبر الواتساب الذي لم يكن يتابعه اصلاً أثناء الإجازة. استعاد على الفور تفاصيل الحلم وعرف لاحقاً ساعة الوفاة ومطابقتها مع حلمه، فانشغل فكره، كيف يحصل هذا، واستبعد أن يكون الأمر مصادفة خصوصاً وأن ذهنه كان خالياً من أي شئ يمكن أن يؤدي إلى ذلك الحلم.. في اليوم التالي أخذه الطريق إلى المطار على بعد النظر من أم ملحان فالقى عليها التحية واستبعد بسرعة الأفكار الدينية التي ساورته.

□□□ □□□□□□ .indd 77 □□/□□/□□□□ □:□□ □

القربان

نام متعباً متألماً، وظن أن السبب يعود إلى الجهد الذي بذله في المزرعة ذلك اليوم من تحميل ونقل شتلات زيتون، كون مكان الألم هو ذاته الذي يشكو منه كلما أجهد نفسه في رفع الأشياء أو عندما يزعل، وكان يظن أنه فتاق بالرغم من أن العديد من الأطباء أكدوا له أن لا فتاق لديه. في الصباح تنبه إلى تغير شديد في البول الذي أصبح لونه يشبه الكوكاكولا. لم يكن أي من أصدقائه الأطباء الذين سألهم مختصاً في المسالك البولية، فاتجه إلى شارع الأطباء بحثاً عن اختصاصي مسالك بولية، واستدل بيافطه أحدهم فلجأ اليه.

«متى فحصت البروستاتا آخر مرة ؟»

«لم أفحصها حتى الآن.» كانت إجابه عبد الله للطبيب العجوز، ولم يخبره أنه كان يتهرب من الفحص الأولي الذي يتحتم أن يكون عبر الشرج. كان يعرف أنه بعد سن الخمسين لابد من فحص دوري كل ستة أشهر للبروستاتا، ولكن عبد الله تجاهل الأمر رغم بلوغة الثالثة والستين. سأله الطبيب عن ظروف التبول: أياتي مُفاجئاً، وما الكمية، وهل يشعر بحرقة. «لا يوجد شئ من ذلك.» قال للطبيب الذي طلب منه التمدد على السرير وخلع السراويل.

«البروستاتا طرية وجيدة ولا مشاكل فيها.» قال الطبيب بنبرة حيادية وهو يخرج أصبعه من شرج عبد الله وأضاف: «ستحتاج إلى فحص بول في المختبر، وتعود إلي مع نتيجة الفحص.» عرف من الطبيب أن الأعراض وسلامة البروستاتا تعني عدم وجود التهاب، وبالتالي لا بد من سبب آخر لاختلاط الدم بالبول، ربما يكون انفجار شعيرات دم في البروستاتا أو بالطبع ورم خبيث أو حميد، إذاً وبغض النظر عن نتيجة فحص البول فلا بد من تنظير للمثانة وإزالة أي ورم وفحصة مختبرياً

□□□ □□□□□□ .indd 78 □□/□□/□□□□ □:□□ □

وهذه عملية تحتاج إلى تنويم كامل وبقاء يوم في المستشفى على الأقل.

لم تعجبه فكرة البنج الكامل، أو عدم معرفه مسبقة إذا كان في مثانته ورم أم لا. تذكر موت أخيه الأصغر في المستشفى أثناء عملية تطلبت تنويماً كاملاً، وثبت لاحقاً وقوع طبيب البنج في خطأ قاتل، بل اعترفت إدارة المستشفي بالجرم، ولكن الشاب كان قد مات. غادر العيادة بعد أن أخبر الطبيب أنه سيفكر في الأمر، وحاول تركيز أفكاره حول المختبر وربما تُظهر نتائج فحص البول سبباً مباشراً لاختلاط الدم بالبول. كانت العينة التي تركها للفحص بذات اللون كما في الصباح.

بعد ثلاثة أيام جاءت نتيجة الفحص بعدم وجود أي التهاب، وذلك يعني حتمية عملية التنظير واحتمال كبير لوجود ورم. كبرت مخاوف عبد الله، وكان قد انشغل ذهنه طوال فترة انتظار نتيجة الفحص بين السلبي والتشجيعي، بل قطع على نفسه وعوداً بتقديم قرابين وهو المبتعد عن الديانات والعبادات، وفكر أنه إذا ثبت إصابته بالسرطان فلن يلجأ للعلاج المضني وهدر الوقت، ولكنه سيقوم بأعمال مميزة قد تؤدي لاستشهادة، فربما هناك جنة ونار وحينها يبتعد عن عذاب المرض ويفوز بجنة وحوريات، وإن تأكدت نظرته ولم يكن هناك آخرة وعذاب وثواب، فيكفيه ما أنجزه في حياته الطويلة التي ستنتهي سريعاً وبرنين بدل معاناة الألم وآثار العلاج. كان يشجع ذاته بهذه الأفكار، ثم تذكر فجأة أنه قد رأى أخاه، ضحية خطأ المستشفى، وذلك في الليلة التي اكتشف في صباحها اختلاط دمه ببوله. لم يكن قد فكر قبل النوم في أخيه ولكنه رأى في الحلم أنه يبحث عنه وعثر عليه في مدينة طلابية غربية، سمع من يذكر اسمه، فناداه ثم حضنه قبل أن يفيق من النوم ليرى خليط الدم مع البول. انزعج حين تذكر الحلم وموعده ولكنه تغاضى عن الأمر ومحى الوساوس.

قرر عبد الله البحث عن طبيب مختص ولديه جهاز تنظير ليتأكد بدون تخدير مما في مثانته. وجد ضالته في أستاذ جامعي أجرى له الفحص في العيادة بعد أن وضع مادة لزجة في قناه البول تبعها خرطوم به خراطيم أصغر، أحدها يحمل الكاميرا والآخر يضخ الماء في المثانة حتى تتسع وتظهر جدرانها بوضوح. كان عبد الله مسلتقياً على السرير ينظر مع الاستشاري إلى شاشة كبيرة تُظهر ما تراه الكاميرا التي يتحكم

□□□ □□□□□□ .indd 79 □□/□□/□□□□ □:□□ □

بها الطبيب ويحركها بسرعة. سأل عبد الله طبيبه إذا كان قد جرب هذه العملية. "لايمكنني تجربة كل الأشياء التي أفعلها، فأنا أبدل للمرضى الكلى والمثانة إذا لزم الأمر والكثير غير ذلك." أخبره عبد الله أن سبب السؤال هو شعورة بالحاجة للتبول وأنه يتابع الكاميرا ويضغط على قضيبه لوقف التدفق.

لم يجد الاستشاري وعبد الله أي شئ على جدار المثانة وحمدا الله، ولكن أثناء سحب الكاميرا شاهد الطبيب ورماً على عنق المثانة وشاهد عبد الله ورماً اصغر يقابله. لحظات صمت تبعها تأكيد وجود ورم وأضاف الطبيب أنه ليس بالضرورة أن يكون خبيثاً. كان الإشكال الفوري الذي واجهه عبد الله بعد سحب الخرطوم كيف يمنع التبول الآن. لا وقت مطلقاً للذهاب إلى الحمام، ولا يعقل التبول في المغسلة. أمسك بالقضيب وبحث الطبيب عن قارورة يخرج منها أنبوب يُعاد إلى المثانة لتفريغها، لكن عبد الله أبصر قارورة أخرى فارغة فتناولها وأفرغ فيها مثانته.

«سنحتاج إلى إجراء عملية تنظيف وتجريف للورمين ثم فحصهما في المختبر.» قال الاستشاري وأقنع عبد الله بعدم جدوى الخوض الآن في فرضيات ما العمل إذا كان سرطاناً، وأخبره بكثرة الأنواع وتفرعها وبالتالي طرق التعامل معها. «متى يناسبك إجراء العملية؟» صمت عبد الله فأضاف الطبيب: «بعد غد الأربعاء؟» وافق عبد الله على الموعد وأخذ الطبيب يسجل ملاحظات لإدخاله للمستشفى.

«سجل لهم انني مصر على تخدير نصفي وليس كليّ.» وافقه الطبيب وأخبره أن الكلي أسهل ويفيق منه المريض أسرع. «لا يهم الوقت أريد رؤية العملية وماذا ستفعل أنت، وأريدك ان تسجلها على اسطوانة.»

لم يخبر زوجته على المحمول بالنتيجة والموعد، أراد أن يكون معها ليخفف مخاوفها. كانت تعرف أن احتمال إصابة الزوجين بالسرطان واحد إلى عشرة ملايين، وبالتالي أطمأنت أن السرطان اكتفي بها منذ ثلاث سنوات ولن يهاجم عبد الله. لقد اتخذت موقفاً صلباً حين أزالت ورمها، إذ تقبلت علاج الأشعة المباشر ولكنها رفضت استكمال العلاج بالهرمونات والكيماوي. كانت فلسفتها أن الكيماوي سيقتل كل الخلايا الصالحة والطالحة وسيكون على جسدها أن ينُمي خلايا جديدة، لكن

□□□ □□□□□□ .indd 80 □□/□□/□□□□ □:□□ □

العمر والحالة الصحية العامة لن تنجدها، فهذه العلاجات بحاجة إلى جسد قوي. لكنها نجت من المرض ولم يعاودها وذلك بفضل التفكير الإيجابي واعتماد وصفة هندية قوامها الكركم.

أخبرها بوجود وَرَمان وأكمل الحديث باحتمال أن يكونا حميدين «ولو كان غير ذلك فأنا لا أشعر بألم الآن وهذا يعني استمرار الحياة والصحة لعام آخر على الأقل، وهذا كاف بالإضافة لما سبق.» قال لها وهو ينظر لدموعها، وعاد ليؤكد عدم اهتمامه مطلقاً بالأمر... لم تصدقه بالطبع ولكنه صدق ذاته وأخذ الشعور بالاضطراب يتلاشى لمعظم الوقت ثم يعود لبعضه. تذكر القليل مما فعله ويستحق العقاب، فاستعد للاستقامة، وأنذر قربانين، الأول إذا نجحت العملية، والثاني إذا ثبت من تحليل الورم أنه ليس خبيثاً. لم يطلع زوجته على أفكاره فهي علمانية حتى النخاع، وستغضب لو عرفت أنه يلجأ إلى القرابين.

في مساء الثلاثاء تفحص عبد الله الفيس بوك فإذا ابن أخ له يتذكر يوم وفاة عمه، الذي ذهب ضحية خطأ طبيب التخدير. لم يكنً يعرف تاريخ وفاة أخيه الذي رآه في الحلم ليلة بداية هذه القصة. في صباح الأربعاء كان قد استقر في غرفة بالمستشفى بانتظار نقله إلى غرفة العمليات. كان تاريخ اليوم ٢٨ ولكن جهاز قياس الضغط أصدر النتيجة مكتوبا عليها تاريخ اليوم السابق، وهو ذكرى وفاة أخيه في مستشفي، وأثناء العملية، وبسبب التخدير، قبل أربعة عشر عاما. لم يخبر زوجته بكل هذه التراكمات النفسية ولكنه فكر بالانسحاب من الغرفة وحاول اختلاق مشكلة بسبب طول الإنتظار، ولكن زوجته لم تتركه ينسحب من المستشفى.

تمدد على سرير العمليات حسب طلب المرضين، وحاول أحدهم وضع كمامة على وجهه. «ماذا تعمل ؟ ما هذا ؟» سأل عبد الله المرض بحدة، فأخبره أنه يريد أن يخدره. «لكني طلبت تخدير نصفي وهذا يعني إبرة في الظهر..» قال بحدة للممرض الذي حاول إقناعة بأن عمليته من فئة التخدير الكامل وقال له إن عدم الإستجابة ستعني بهدله للممرض وتأثير على عمله. «طيب أنت اطلع برة غرفة العمليات ونادي رئيس قسم التخدير.» حضر الطبيب الاستشاري على صوت عبد الله مستفسراً وأكد أن التخدير نصفي، وبعد دقيقة كان رئيس قسم

□□□ □□□□□□ .indd 81 □□/□□/□□□□ □:□□ □

التخدير يبحث عن موضع الإبرة في ظهر عبد الله وهو يمازحه.

انتهى الحال بعبد الله في وضع الولادة وأخذ الطبيب ينادي طلباً للإضاءة وبقية المعدات ثم أمر ببدء التصوير وهو ينظر إلى الشاشة بينما عبد الله يتابع مسار الكاميرا. «خذ جولة إضافية فربما لم ننتبه لشئ آخر في المرة السابقة.» أجابه الطبيب بحاضر. «ما كل الأشياء التي ادخلتها من قضيبي ؟»

«خرطوم مرن به كاميرا في المقدمة كما ترى، ونضخ الآن الماء لنفخ المثانة، وهناك قشاطة وكواية نزيل بها الورم ونكوي مكانه فوراً لوقف الدم..» كان الاستشاري يشرح لعبد الله وهو يزيل في الورم فتنفر الدماء ليعود إليها ويمرر المكوى فيتوقف النزيف. قاطع طبيب التخدير الحديث سائلاً عبد الله عن عدد زوجاته وعن سر لون عيونه وهو البدوي الأصل. كان باب غرفة العمليات مفتوحاً والمرضين طالعين نازلين وكلهم ينظرون بين أرجل عبد الله.

«الختيار، رحمه الله، وبعد أن تزوج اثنتين من القبيلة خطر في باله التجديد، فذهب إلى لندن وعاد بوالدتي التي أورثتني لون عيونها..» عمت فوضى التعليقات فرحاً بتمرد الختيار وكادوا أن يكبروا، بينما الاستشاري يبتسم لأنه يعرف الحقيقة. عشر دقائق بالضبط وطلب الاستشاري وقف التصوير وأبلغ عبد الله أنه سيفرغ له المثانة هذه المرة ولن يحتاج للتبول إلا بعد أن ينتهي شلل رجليه، وقال أنه سيرسل فوراً عينة من الورم للمختبر ولكن النتيجة لن تظهر قبل الأحد.

قبل المغرب استعاد عبد الله فعالية ساقيه فغادر المستشفى إلى البيت مع زوجته ولم يكن قد أعلم أي شخص آخر من الأهل والأصدقاء بما فعل. أبلغه الطبيب أن البول سيحرقه لفترة وسيرافقه دماء، ولكنه لم يحذره لتغير مقاس فتحة القضيب وطلب منه الإكثار من شرب الماء. هكذا عندما أراد التبول واقفاً كالعادة تدفق البول في كل الإتجاهات، فقرر بعد تلك التجربة أن يبول في المغسلة لأنه بحاجة لمراقبة اللون. في الليل بدأت الحرارة في الارتفاع وصار عبد الله يهلوس ولم ينجده إلا كمادات الثلج على رأسه وصدرة التي اشغلت زوجته طوال الليل. لم يتحسن الوضع إلا قليلاً في الصباح واليوم التالي وهكذا عاد عبد الله إلى

□□□ □□□□□□ .indd 82 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الطبيب يوم السبت وعرف منه أنه أُصيب بالتهاب تسبب فيما حصل وعاتبه لعدم الاتصال الهاتفي به، وكتب له أدوية جديدة للتعامل مع الالتهاب.

هذه الأزمة الإضافية حدت من تفكير الزوجين في نتيجة الفحص، وتذكر عبد الله أن يمر على مختبر المستشفى ويعطيهم رقم الهاتف ويتفق معهم على إرسال صورة على الواتس لنتيجة الفحص حينما يرسلونها إلى الطبيب. في طريق العودة إلى البيت عرفت الزوجة ما كان يدور في خلد زوجها إذ أخبرها كيف حلم بأخيه في الليلة الأولى قبل أن يكتشف المشكلة ثم حلول ذكرى الموت وعناد جهاز التخطيط بطبع يوم موت أخيه المخالف للتاريخ الفعلي. لم يخبرها بما عزم عليه من تقديم قربان النجاة من العملية وآخر بعد نتيجة الفحص المختبري، وعندما أحضر كبدة الخروف الثاني إلى البيت قال لزوجته بأنه حصل عليها من صديق.. لم تكن كذبه كاملة إذ طلب من صديقه أن يقدم القربانين فأفتى له بأحقية أن يحصل على الكبدة.

□□□ □□□□□□ .indd 83 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 84 □□/□□/□□□□ □:□□ □

حياة

□□□ □□□□□□ .indd 85 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المتشبب

«والله إنني خائف شوية.»

«لا تخف يا حاج، ما حلله الله لا يحرمه البشر..»

«لست خائفاً من البشر، أو معطيهم أي اهتمام..» قال الحاج السبعيني لرفيق عمره الذي رفع عينيه مستفسراً، فأكمل الحاج ".. خايف العدة ما تشتغل."

«كيف هالكلام يا حاج؟ هي شغالة أو بطالة؟ ألا تعرف؟»

«عارف يا رجل، الله يسم بدنك، كيف مش عارف.. الآن كل شئ شغال، لكن هذا كثيراً من النظري وقليلاً من العملي.» نظر صديقه إليه وكل خلجات وجهه تؤكد أنه لم يستوعب تماماً ما يريد الحاج قوله، فواصل السكوت لاستدراج الحاج. «يعني لما أفكر في الموضوع بعمق يكون كل شئ تمام وأقف مستعداً، وبين الحين والآخر عندما ينتابني الشك أختبره فيبيض وجهي.»

«تمام ما المشكلة إذاً؟ خايف من الخجل يعني؟»

«أنا والخجل أصحاب، ولكن خايف من التقصير، فالبنت صغيرة، صغيرة جداً بالنسبة لي، وإذا تعودت وصارت تطالب بالمزيد، خايف أقصر، فهمت؟»

«فاهم عليك، لكن المهم هو الطلق الأول، هل أنت واثق من قدراتك على التنشين والإطلاق؟ إذا ضبطت أمورك من البداية فلا خوف لاحقاً لأن كل شئ بالتعويد وهي صغيرة وجاهلة وأنت تعودها.»

«هذه أيضاً مش بسيطة، الطلق الأول..» قال الحاج وقد أغمض عينيه وتجلت أمامه صورة الفتاه التي اتفق مع أهلها بالتقدم إليها يوم

□□□ □□□□□□ .indd 86 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الخميس القادم، وتذكر أن أهل الصعيد يدخلون على العرائس بأصابعهم للتأكد من العذرية، ولكن هذا لا يجوز هنا، بل تكون فضيحة لو فعل مثل الصعايدة وأبلغت البنت أهلها، ثم ما الفائدة، هو يريدها لأن خياله نشط جنسياً.

«إنها رهبة الليلة الأولى يا حاج، وهي تصيب الشباب والعواجيز، وأنت ما شاءالله عليك زي الحصان. اترك الأمر لي سأوفر لك ما يضمن عدة طلقات في الليلة الأولى.» كان صديقه يفكر في توفير حبات فياجرا تضمن للحاج عبور الليلة بسلام لتبقى الذكرى قوية بين العرسان.

اطمئن الحاج وأتم الخطبة ودفع المهر وعقد على الفتاة التي تصغره بنصف قرن، وكان قد جهز لها البيت فجدد السرير الذي أنجب فيه سبعة من الأولاد والبنات كلهم عارضوا زواجه ولكنه تحداهم. واشترى خزانات جديدة للمطبخ وفرشات للصالون، فقد كان ميسوراً مقارنة بأهل العروس الفقراء، وكانت الأراضي كلها لازالت باسمه ولم يعط الأبناء أي شئ، فقط سمح لمن يريد منهم أن يعمل بالأرض مقابل مونته وعيديته. كان تواق للجنس وأصبح يترقب ليلة الدخلة وأكثر من زيارة أهل البنت حاملاً الهدايا ليتامل في جسدها وهو يتحسس على شريط الفياجرا في جيب القنباز.

جاءت الليلة الموعودة ولم يعرف كيف سارت الحفلة، كان يفكر في ساعة الصدام وإذا كانت الفياجرا ستضبط طلقاته بالفعل، لم يتامل في مجريات الحفل أو نظرات المدعوين وهمسات العجائز، أراد الجهوزية في اللحظة المناسبة، وتذكر قول صديقه بأن عليه تناول حبة فقط قبل ساعة الصفر. اختلى العريس بالعروس ومر بعض الوقت، وفجأة ارتفع صراخ البنت، فزغردت بعض قريبات العريسين، لكن الفتاه لم توقف الصراخ بل ارتفع صوتها أكثر وسمع الأهل ما يشبه نداء إستغاثه فقرعوا الباب ودخلوا ليجدوا العريس ممدداً على الأرض بدون أنفاس.

في المستشفي احتار الأطباء لهذا الموت المفاجئ حتى فتشوا ملابسه فوجدوا بقية الشريط ناقص حبتين وخمنوا أن العريس تناولهما في جرعة واحدة قضت عليه، فمن كان في سنه لا تناسبه الفياجرا، وإن استعملها، فعليه بنصف حبه فقط.

□□□ □□□□□□ .indd 87 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المُجاز

«ماذا لو تبول المصيفون في البحر؟» راوده التساؤل وهو يراقب الناس يدخلون البحر مشياً وهم ينكمشون من صدمة الفارق بين حرارة الشمس على الرمال وبرودة الماء، ثم يقفون يرشقون أنفسهم بالماء، ويبتعدون عن تلك البقعة ويسبحون خارجين إلى الشاطئ، تماماً كما فعل هو حين تبول في البحر بدل أن يسير إلى دورة المياة القريبة. «على الأرجح إن مجاري دورة المياه تصب في مكان ما في البحر هي الأخرى.» هكذا برر فعلته، ولكنه امتعظ من فكرة أنه يسبح في بول الآخرين.

استلقى على بطنه فوق كرسي البحر وأدار وجهه إلى الشمال ولم يستطع النظر طويلاً إلى جارته المستلقية على ظهرها وبطنها يعلوها بما يبدو توأم على وشك الميلاد. استدار بوجهه إلى اليمين حيث فتاتين ذوات جسم متناسق منبطحات على البطن ومؤخراتهما أعلى من مستوى الظهر. كانتا تنظران إلى بعضهما وتتجاذبان أطراف حديث لم يسمعه ويهتز جسميهما عندما تضحكان فتظهر كتلة إضافية من صدر جارته التي كانت قد فكت رباط الصدارة لتنال الشمس من كل ظهرها. أخذته الأفكار والتخيلات بعيداً، ولو كان مستلقياً على ظهره لانفضح أمره. فجأة خف ضحكهما واستدار رأس جارته إليه فخجل ظناً أنهما كشفتا افكاره. تبسم وأخذ يبحث عن كريم الجسم الواقي من الشمس فاستدارت الفتاة إلى صديقتها بينما باشر هو بدهان يديه ورقبته بالكريم ثم اعتدل في جلسته ودهن ساقيه وصدره وبطنه وأخذ يحاول توزيع الدهان على ظهره وهو منبطح يتلوى ذات اليسار حيث الجارة الحبلى وذات اليمين حيث الرشيقتين ولكن بدون فائدة حتى تقدمت جارته الرشيقه وابتسمت له ورطنت مشيرة بيديها ففهم أنها تريد مساعدته في تغطية البقعة صعبة المنال من ظهره، فناولها الكريم والابتسامة ملئ شدقيه وأدار وجهه تجاه الجارة على اليسار.

□□□ □□□□□□ .indd 88 □□/□□/□□□□ □:□□ □

مر بعض الوقت وهو ثابت على وضعه منبطحاً على بطنه يدير رأسه ذات اليمين حيث تجاهلته الرشيقتان تماماً، وذات اليسار بينما الابتسامة لم تفارق محياه. تذكر أنه يحمل كتاباً في شنطة الشاطئ فمد يده وأخرجه ورفع صدره وأتكأ على كوعيه وأخذ يقلب الصفحات بحثاً عن مكان توقفه من الأسبوع الماضي. طالع فقرتين وحاول تذكر المحتوى السابق ولكن من دون جدوى، فأخذ يقلب الصفحات باتجاه البداية.. لمح جارته على اليسار تحاول الوقوف فنهض ليساعدها. مد يده اليها فأرسلت اليه نظرة غاضبه.. أشار إلى بطنه وتمتم ليفهمها أنه يساعدها من أجل البيبي في بطنها. إرتفع صوتها بما لا يفهمه من كلام بدى كالسباب، نظر المصيفون إليهما وقد نهضت قبالته، أسرع مسؤول الموقع إليهما بينما الجارة تصرخ وتدفع جارها المتقهقر.. انحنت على صندلها فاستدار هربا ولكن تصويبها كان محكماً. أخذ الناس يسألونها عما جرى وهي تجيبهم بصراخ.

هدأ الموقف بالسرعة التي اشتعل بها، ونقل مسؤول الموقع حاجاته إلى مظلة أخرى بعيدة وشرح له بالانجليزية أن السيدة ليست حامل وظنت أنه يستهزء بسمنتها أمام الآخرين حين أخذ يشرح لها بالإشارات أنه يريد مساعدتها لأنها حامل. استحمر ذاته كيف لا يميز بين حبلى وسمينه، وأغمض عينيه وزم شفتيه وهو يؤنب ذاته على التدخل أصلاً.. لكن ألم تتدخل الرشيقة لدهان ظهره.. قطع المسؤول حبل أفكاره سائلاً إياه عن المشروب الذي يحضره إليه. «بيرة» قال باقتضاب وتمدد على كرسي البحر معطياً ظهره لغالبية المصيفين.

□□□ □□□□□□ .indd 89 □□/□□/□□□□ □:□□ □

أم حماده

سلمت شنطها في جو فوضوى لا لزوم له خصوصاً وأنها في مطار جون أف كينيدي بنيويورك، لكن الرحلة كانت إلى القاهرة وعلى متن مصر للطيران حيث لابد من تعايش اضطراري بين الأمية والفوضى والأنانية من جهة، والنظام والعلمانية والتسامح من جهة أخرى.

«شكراً يا مدام على مساعدتك لأم حمادة..» كانت عندليب قد أجابت على بعض أسئلة من أم حمادة وأرشدتها لتسليم حقائبها «الله يخليكي يا مدام خذي أم حمادة معاكي..» قال زوجها الذي عجز عن ملئ الاستمارة لزوجته المسافرة «.. أم حمادة ما تعرفش إنجليزي ولا عربي ولا حاجة، ديري بالك عليها الله ينور عليكي يا مدام.»

«حاضر ولا يهمك.» قالت عندليب وأصبحت تتحرك مع أم حمادة ببطء يناسب حجمها وهمتها إلى حاجز الجوازات بينما زوجها يشرح سبب سفرها إلى القاهرة كون إبنتها مريضة وتحتاج إليها هناك. سأل عندليب إذا كانت مسافرة للقاهرة «مسافرة على طائرة القاهرة ولكني ترانزيت إلى عمان.» تشكك الزوج في الإجابة لذكر اسم مكان غير القاهرة.

«لكن أنت حتركبي الطيارة المصرية صح؟» أجابته بنعم «خلاص يعني تاخديها معاكي لباب الطيارة.» أجابته بحاضر. «مش أوصيكي على أم حمادة دي ما بتعرفش ولا حاجة يا مدام الله يفتح عليكي.» طمأنته وأرسلت أم حمادة أمامها إلى نافذة الجوازات، فأخذت هذه تنظر إلى الموظف وتلتفت إلى عندليب مشيرة بيديها ماذا تفعل وماذا يريد. رفعت عندليب جواز سفرها ففهمت أم حمادة المطلوب وقدمت جوازها إلى الموظف الذي لم يكف عن الحديث والسؤال بإلانجليزي وأم حماده تعطيه إجابات بالعربي بأنها ذاهبة للقاهرة لزيارة ابنتها وستعود.

□□□ □□□□□□ .indd 90 □□/□□/□□□□ □:□□ □

بدأت المسيرة من حاجز الجوازات إلى صالة الانتظار المشتركة لركاب عدة رحلات مختلفة، كل منهم يستمع للميكروفون عن رقم رحلته ووجهتها والبوابة الواجب التوجه إليها. كانت أم حمادة تتماوج بمشية البطة وتحمل حقيبة يدوية بها أطعمة وأشياء شخصية، وعندليب تساير حركتها ويتصاعد الشك لديها تدريجياً إذا كانتا ستصلان في وقت مناسب، فهي ليست خبيرة بمطار جون إف كينيدي وأقلعت منه مرة واحدة قبل ذلك على متن طائرة فرنسية إلى باريس ولا تعرف طول المسافة إلى هذه الصالة. «لماذا لم يطلب لك زوجك خدمة مساعدة من شركة الطيران؟» نظرت أم حمادة إلى عندليب من دون أن تتوقف أو تبطئ أكثر في السير، ففهمت هذه أن تلك لم تفهم المقصود. «لو طلب لك مساعدة ستركبين في كرسي متحرك بعد تسليم الشنط حتى باب الطيارة بدون أن تمشي خطوة واحدة.» طلبت أم حمادة من الله أن يسامح أبا حمادة.

في الصالة، أخيراً، اتجهت أم حمادة وهي تمسك بيد عندليب إلى تجمع مصريات يبدين كأخوات لها وكأنهن صنعن في قالب واحد. «المدام فلسطينية» عرفت أم حمادة أخواتها على رفيقتها فانهال الدعاء لفلسطين وشعبها على الألسن وتأكيد أن الجميع في مصر يحب الشعب الفلسطيني ويتمنى له الخلاص.

«حد بيعرف فين الحمام؟» سألت إحدى الأخوات وهي تنظر إلى عندليب فارشدتها بالإشارة. «والنبي تيجي معاي يا حبيبتي.» قامت حبيبتها توصلها «دا بيتسعملوه إزاي؟» شرحت لها كيف يفتح الباب وكيف يجب إغلاقة من الداخل ثم إعادة فتحه للخروج. كانت هذه السيدة أضخم من أم حمادة فتركت حقيبتها على الباب خارج الكابينة ولكن عندليب أخبرتها أن تأخذ حقيبتها معها فناولتها هذه كبشة أوراق وطلبت منها أن تبلها وتعيدها لها، ففعلت وغادرت المكان.

«هي الصلا فين؟» نحن هنا في الصالة أجابتها عندليب، «لا لا الصلا» فشرحت أم حمادة لعندليب أن السيدة تريد الصلاة وتسأل عن القبلة، ثم قالت للسائلة أن تصلي في أي أتجاه فلا يهم طالما أنها نوت الصلاة. لم تقتنع بنصيحة أم حمادة وذهبت لتسأل رجل بملامح عربية

□□□ □□□□□□ .indd 91 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ولكنها عادت بدون جواب. «صلي يا حبيبتي في أي اتجاه، أنا قلتلك من الأول، اقعدي على الكرسي وانوي وصلي يا حبيبتي.» قالت أم حمادة ولم تجد الأخرى مفراً من الانصياع.

أخيراً اقترب موعد ركوب الطائرة ومعه التفتيش الأخير للحقائب اليدوية وللجسم بالطبع، حيث يجب خلع كل ما يمكن أن يحتوي على ذرة من المعدن حتى لا يُطلق إنذار جهاز التفتيش اليدوي. لكن أم حمادة زنزنت الجهاز فطلبت منها الشرطية أن ترفع يديها لتفتشها بالتحسس اليدوي. «دي عايزة أيه يا مدام؟» قبل ان تجيب عندليب رفعت الشرطية يديها لتشرح لأم حمادة المطلوب، ولكنها واصلت أنتظار سماع عندليب التي أخبرتها ان ترفع يديها لاعلى للتفتيش. فجأه ضحكت أم حمادة وتموجت وابتعدت عن يد الشرطية التي لامست أبطها. عادت الشرطية تطالبها برفع الأيدي، واصبحت ضحكات أم حمادة أعلى وكادت أن تسخسخ كلما لمستها يد الشرطية. صارت الشرطية أيضاً تضحك لضحكها، وزميلات أم حماده يطالبنها أن تجمد شوية، ثم حضر الشرطي المسؤول عن تفتيش الرجال ليستطلع سبب الصهينة، نظر لمحاولات زميلته ورد فعل أم حمادة وصار هو الأخر يضحك فتركوها تمر وهي تزن.

كان نصيب عندليب أن تجلس بعيداً عن أي واحدة من رفقة السفر فتمكنت من النوم، ولكن أم حمادة لم تنساها عند الهبوط في القاهرة فوقفت على باب الطائرة قبل الهبوط على السلم تشير لعندليب وترسل لها قبلات هوائية.

□□□ □□□□□□ .indd 92 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ياسين

«والله يا ياسين توقيتك فريد.» قال أحد الركاب الذي غادروا مقاعدهم وتزاحموا في الممر بعد توقف الطيارة وطبعاً قبل فتح الأبواب.

«طيب شو اعملك..» قالت أمه واكملت وكأنه لا يوجد غيرها في المكان: «تشخ في الشريطة ونسيبها هنا؟» لم يتقبل ياسين فكرة أن يفعلها أمام الجميع، وكان من المستحيل أن يخترق الجموع المتأهبة ليصل إلى المرحاض.

ياسين هذا إرهابي صغير لم يتخط الثلاث سنوات ويبدو أن أمه هبلة. قبل هذا الحدث بستة ساعات شاهدتها في مطار فرانكفورت في طابور تسليم الحقائب. كانت جالسة على الكراسي ومعها عربة تحمل ثلاث حقائب، وحولها شنط أخرى وابنها الصغير في حضنها بينما تسلق ياسين فوق الحقائب ليقع كل بضعة دقائق فتعيده إلى مكانه. حين وصلت كانٍ هناك فجوة بين مكان جلوسها وآخر الطابور، فظننت أنها تنتظر شيئاً ما وليست ضمن الطابور البطيء. بعد ثلاث أو اربع حركات في الطابور وبعد التقدم صرخت أم ياسين أني أخذت دورها. ذهبت مع من اصطفوا خلفي خلفها وبعد حوالي نصف ساعة من الزحف وجرها للشنط وإعادة ياسين كلما وقع والركض خلف أخوه سلمت حقيبتي. في هذه الأثناء كان هناك من يتحدث بصراخ لآخرين في الطابور كيف أن شركة الطيران أخذت منه مائة يورو زيادة كثمن تذكرة اشترتها بنت بنته بالسعر الأرخص. تمنيت أن لا يكون مقعده في الطائرة بالقرب مني. وزادت مخاوفي عندما تجمعنا في الصالة بانتظار الصعود للطائرة، فقد صرخ في شخص طلب منه التحدث بهدوء فالجمه، ثم اقتحم الحاجز ووقف ينتظر بقية جماعته، وعندما وصلته إحدى النساء سألها عن البقية فقالت أنهم ينظفون الطفلة، فقال بصوت مجلجل: «يعني نظل واقفين نستنى خريتها.»

□□□ □□□□□□ .indd 93 □□/□□/□□□□ □:□□ □

دخلت إلى الطائرة كآخر راكب، وسررت حين رأيت صاحبنا مع جماعته في المقدمة بينما مقعدي في الوسط، ويا للحظ ! كان ياسين يجلس خلفي مباشرة وأمه مع أخيه الأصغر على يساره وراكب شاب عديم الحظ يجلس على يمين ياسين الذي لم يمهلني وباشر بضرب الكرسي بقدميه. التفت إلى أمه حتى تفهم فقالت له: اسكت يا ياسين الله يرضى عليك. لم يهتم ياسين وأخبرته أمه أنه بعد الإقلاع سيتمكن من مشاهدة أفلام كرتون على الشاشة التي يخبطها بقدميه. تأبطت خيراً بأن الطفل سيسكت أو ينام أو ينشغل في مشاهدة الأفلام. كف ياسين عن الخبط أثناء الإقلاع إذ غطس للخلف في كرسيه مع اندفاع الطائرة للأمام ولأعلى، وما إن اعتدلت الطائرة حتى عاد الخبط ومطالبة أمه الهبلة بين الحين والآخر له بالسكوت. تملص ياسين من الحزام وركب فوق جاره بينما أمه تطالبه بعدم إزعاج عمو الذي يعيده لمقعده فيرتد ياسين إليه كل مرة مثل المغناطيس لينظر من الشباك. كان من الواضح أن ياسين لا يملك ذرة انضباط ولم يتلق من عائلته أي تربية على الإطلاق، وكانت أمه تعرف ذلك إذ أصبحت تشجعه على الابتعاد عنها ليرهب بقية الركاب.

ذهبت إلى الحمام فوجدت ياسين يحاول فتح الباب والمضيفة تشد يده عن المقبض قائلة «عيب» فترتد يده إلى الباب فور تملصها من المضيفة، ثم قرر الانطلاق يضرب الركاب على جانبي الممر، تصدى له كبير المضيفين ولكنه أفلت من بين رجليه.. خرجت سيدة من الحمام وهي تنظر إلي بغضب، ولكنها لم تتفوه وانطلقت عائدة إلى مقعدها قبل أن أعتذر لها أو أخبرها من الذي أقلقها. في طريق العودة لمقعدي شاهدت كبير المضيفين يحمل ياسين من خاصرتيه ويضعه على المقعد بجانب أمه. بعد أقل من دقيقة كان ياسين يقف على مقعده ويشد في شعري.. «إهدأ يا ياسين» قلت له بهدوء اليائس، ولكن يديه امتدت للنظارة فأنقذتها قبل أن يخطفها واستدرت إليه فقالت أمه: اسكت الله يرضى عليك. «الله لا علاقة له بالأمر، لا يمكن ترك طفل بدون أي تربية منذ ولادته والآن تريدي أن يستمع إليك». قبل أن تعلق على كلامي وكنت أتحسس رأس ياسين وأشد شعره، سألها جار ياسين عديم الحظ متى ستعودون إلى المانيا، وحمد الله بعد أن عرف الموعد مؤكدا أنه كان سيغير تاريخ سفره لو تصادف مع عودتهم. قبل أن أرتد إلى مقعدي رأيت الشاشة متدلية

□□□ □□□□□□ .indd 94 □□/□□/□□□□ □:□□ □

من مكانها بعد أن خُلعت.

انطلقت موجة ضحك من ياسين وأخيه، ويبدو أن الأول يزغزغ الثاني، شعرت برضاء لتغير الضجيج والعويل وتعليقات الأم إلى موجه ضحك، وندمت على شد شعر ياسين فهو ضحية قلة التربية. أخبرتهم أمهم أنها ذاهبة للحمام وستعود، استمر الضحك لوهلة ثم انقلب إلى عويل من الصغير. هم ياسين بالانطلاق ولكن جارتهم عبر الممر أمسكت بذراعة وأمرته أن يهتم بأخيه ويسكته .. تملص منها وتقدم للراكب أمامها، جاري عبر الممر، رفع ياسين رأس الرجل النائم بيده ونظر إلى وجهه الذي غطت الحيرة ملامحة ثم تركه ومضى إلى الدرجة الأولى. حين قذفته المضيفة عبر الستارة إلى جهتنا أمسكت به جارته ودفعته إلى مقعده، فاندفع يلاعبِ جاره، عمو عديم الحظ، الذي باشر يلطخ ياسين على وجهه مستغلاً غياب أمه، لكن ياسين كان يرد الضربات إلى صدر جاره.

نظرت إلى جاري وباشرت الحديث معه، فقد انعدمت فرصة المطالعة أو مشاهدة فلم أو النوم، لم يكن أمامي سوى تناسي وجود ياسين. عرفني على اسمه وأضاف أنه من سوريا وقادم إلي عمان ليلتقي بعائلته التي تجمعت من دول الخليج وأوروبا. بدا قلقاً ثم قال إنه متخوف أن لا يسمحوا له بالدخول. طمأنته بعد أن عرفت أنه يملك إقامة لثلاث سنوات في المانيا وجواز سفره السوري ساري المفعول. بدأ يخبرني بقصة هروبة من درعا حتى وصل إلى المانيا، ولم أعد اهتم حين أشعر بيد ياسين فوق رأسي، بل أصبحت أربت على يده حتى لا ينتقم مني ويشد بقية شعري. قال إنه الإبن الرابع عشر والأعزب الوحيد في العائلة، فبشرته أن أمه قد جهزت له عروس الآن، ولكنه اصر أنه لن يتزوج قبل الثلاثين، يعني بعد ثلاث سنوات. اشتغل معيداً في جامعة دمشق، لكن راتبه لا يكفى لدفع أجرة السكن، يتلقى الدعم من والده الذي يعمل في الإمارات، وكان يعاني من الزعران على الحواجز فقرر الرحيل. خرج إلى تركيا وحاول ثلاث مرات اجتياز البحر في زورق صغير مع آخرين، وفي كل مرة كان حرس السواحل اليونان يعترضون طريقهم ويرمون المحرك في البحر ويتركونهم

□□□ □□□□□□ .indd 95 □□/□□/□□□□ □:□□ □

حتى يسهل على حرس سواحل تركيا الإمساك بهم وإعادتهم. في المرة الرابعة نجحت المحاولة. قال جاري إنه قد سار على قدميه ثلاثة شهور عابراً ستة دول أوروبية حتى دخل إلى المانيا، فأصبح آمناً هناك منحوه الإقامة وجواز سفر لاجئين وتسديد رسوم تعليم اللغة وأبلغوه بفرص التوظف في مجاله إن أتقن اللغة أو بوسعه العمل في أي مجال متاح في السوق، وقال إنهم يدفعون أجرة سكن من يعثر على مكان، ولكن المعضلة أصبحت صعوبة التأجر وتكونت مافيا عربية تعثر على مساكن وتأخذ حتى عشرة الآف يورو لمرة واحدة بدل العثور على مسكن.. طبعا هذا المبلغ لا تسددة الجهات الألمانية. لم يخض جاري في تفاصيل مشاكل الطريق، فيبدو أنه تناساها أو كانت طبيعية بالنسبة له، لكنه ناقم على المافيا والأفراد ممن يستغلون الوضع في المانيا ليحلبوا اللاجئين.

استمر حديثنا حتى هبطت الطائرة وتوقفت ونهض الركاب وتجمهروا في الممر، وطالب ياسين بالذهاب إلى الحمام. في انتظار الحقائب ركب ياسين على الشريط المتحرك فأنزلته بلطف وحادثته باسمه حتى تنبهت أمه فسألتني إذا كنت أعرف ياسين .. نظرت إليها بشفقه وذكرتها أنني من كنت أجلس أمامه، وقال جاره عديم الحظ: وهل يوجد في الطائرة من لا يعرف ياسين. تبادلت معه في توافق تام بعض قوانين التربية للأطفال، ووصلت الحقيبة فودعت ياسين وتطوع أحد الشبان ليساعد أمه في تحميل حقائبها ومراقبة أطفالها. في الطريق إلى عمان دارت في رأسي مفارقات تدميرنا الذاتي للأجيال في الحروب والصراعات الطائفية وخذلان ياسين وأمثاله تربوياً.

□□□ □□□□□□ .indd 96 □□/□□/□□□□ □:□□ □

العارية

وصلت إلى البيت متعبة مبللة بالعرق، لم تكن المسافة التي قطعتها سيراً على الأقدام طويلة، ربما ثلاثمائة متر فقط، حيث أنزلتها سيارة صديقتها على طرف الشارع. كان والداها مسافران لعدة أسابيع خارج البلاد، بينما أخوها في جامعته بمدينة أخرى ولا يعود للبيت إلا في الإجازات، وهكذا اتفق الجميع على منح سائقهم إجازة، ورتبت هي مع صديقتها أن تمر عليها كل يوم لتأخذها معها إلى الجامعة وتعيدها إلى البيت.

دخلت إلى البيت، وكانت قد باشرت بنزع أغطيتها عند اجتياز باب الحديقة. انصبَّ تفكيرها على الدش، وفي ثوان كانت عارية تماماً في غرفتها وقد تغطى سريرها بكومه الملابس الخارجية السوداء والأطقم الزهرية الداخلية. انطلقت إلى الدش وأخذت تزيل العرق عن جسدها بالماء ثم بالصابون ثم بالشامبو، ولم تحسب الوقت الذي استغرقته لترطيب جسدها، أو كمية الماء التي استنفذتها وربما كانت كافية لري نخلة طوال العام.

لفت الفوطة على نصفها السفلي وخرجت من الحمام باتجاه غرفتها. في منتصف المسافة تجمدت حين سمعت صوت أخاها في المطبخ يقول إنه قادم، فظنت أنه سمعها ويخاطبها. دلها عقلها على اللجوء إلى الصالون الأقرب من غرفتها حتى لا يراها أخوها هكذا لو خرج فوراً من المطبخ. فتحت باب الصالون بسرعة البرق واستدارت تنظر من شق الباب إذا كان أخوها سيظهر فتخاطبه، أو إذا كان بوسعها قطع بقية المسافة إذا تأكدت أنه باق في المطبخ. انزلقت الفوطة عن وسطها فرفعتها لتغطي شعرها المبلل وهي تراقب الوضع من شق الباب. لم تعد تسمع صوت أخيها فركضت إلى غرفتها.

بعد وهلة خرجت من غرفتها بلباسها البيتي فوجدت أخاها خارجاً من الصالون يحمل صينية عليها فنجانين قهوة ممتلئين. حياها وسألها إذا

.indd 97

رأت صديقه الذي أجلسه في الصالون قبل دقائق بينما أعد له القهوة، ولا يعثر له على أثر الآن. دارت بها الدنيا وسقطت على الأرض من هول ما دار في خلدها.

في غضون يومين بعد عودة الوالدين من السفر حضر أهل الصديق لخطبة البنت، وقال الصديق لصديقه الناس تظهر وجه البنت للعريس، وأنتم ما شاء الله لم تخفوا عني شيئاً.

□□□ □□□□□□ .indd 98 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ملاحقة هتلر

لم يستطع ردع ابتسامة عريضة ثم أفلتت منه ضحكة لفتت انتباه بعض ركاب عربة المترو من حوله. نظر إليه صديقه الذي يقف قبالة مقعده مستفسراً ومال من فوقه ليرى ماذا يطالع في صحيفته الإنجليزية. «هذا ريفيو لكتاب عنوانه: آخر أيام هتلر لحظة بلحظة.» قال الصديق، لكن اسم هتلر والحديث بينهما بالعربية أعاد نظرات البعض إليه. «بعد سبعة عقود لا زال اليهود ينتقمون من هذا الرجل ويشوهون سمعته ويهينون كل من أيده من الألمان وغيرهم.»

«هم أشطر من العرب ومن البدوي الذي يأخذ ثأره بعد ربع قرن ويقول إنه تسرع في قضاءه.» قال صديقه وهو يتجاهل اختلاس النظرات من بعض الركاب، فمنذ ازدياد العمليات الإرهابية في شوارع أوروبا اصبحت العيون تُسلط والآذان تتنبه لكل ما يقوله شخص ملوّن غير ناصع البياض أو سيدة محجبة.

«جاء في الريفيو أن المؤرخين تناوبتهم الشكوك منذ زمن، أن غزو صاحبنا لأوروبا ومحاولته إبادة أولاد عمنا، هو محاولة منه لتعويض نقص رجولته وصغر عضوه.» قهقه الصديقان، وأكمل قارئ الصحيفة: «حسب المؤرخين مؤلفي هذا الكتاب كان لصاحبنا خصية واحدة وفتحة عضوه من تحت وليست مثلنا من الأمام، وبالتالي عليه الجلوس عندما يتبول، ولا يمكنه ممارسة الجنس..»

«الله أكبر، هتلر أصبح مخصياً وعاجز جنسياً؟» رفع معظم ركاب مقصورة المترو رؤوسهم لتفحص الصديق الذي تعمد رفع صوته ليستفز الإنجليز بقول الله أكبر يليها ذكر اسم هتلر. أنبه صديقه بنظرة واضحة على فعلته التي قد تسبب لهما مشاكل إذا قرر أحد الركاب الاتصال بالشرطة لتتلقفهما في المحطة القادمة.

«هذا ريفيو في التلغراف حول كتاب عن هتلر يقول إنه كان عاجز

□□□ □□□□□□ .indd 99 □□/□□/□□□□ □:□□ □

جنسياً.» قال الصديق الجالس بصوت واضح لجاره البريطاني أسود اللون على أمل أن يفهم الآخرون سبب تكرار اسم الفوهرر.

«كل العنصريون مخنثون.» قال الجار الأسود.

«لكن هذا الكتاب يقول أن عضوه قصير جداً..» علق الصديق الواقف. تركت فتاة إنجليزية بيضاء مقعدها المجاور قبل بلوغ القطار للمحطة، فجلس الواقف بجانب صديقه وأضاف: «.. هل تعتقد أن تشرتشل مخنث وسلاحه صغير مثل غريمه؟»

«دعنا من تشرتشل، ماذا يقول الريفيو غير ذلك؟»

«نعم دعنا منه..» قال قارئ الصحيفة لجاره ونظر إلى الريفيو مجدداً ليتذكر: «يقول كان الفوهرر يخاف أن يراه أحدا عارياً، وأنه بسبب وضعه هذا كان سريع الغضب.»

«لكني شاهدت فيلماً يقول أن لهتلر عشيقة وانتحرا سوياً، وكان بالطبع ينكحها سواء بقصر أو بطول، فكما يقال عندنا فالحجم لا يهم.» توقف القطار ونهض الجار معلناً وهو يغادر: «أنتم العرب تصنعون المشاكل لانفسكم وللآخرين.»

«ربما الكلام صحيح؟»

«كلام الأسود أم الريفيو؟» أشار الصديق بيده إلى الصحيفة. «لا أعتقد أنه صحيحاً فالصحيفة ذاتها تشير لكتاب آخر عن سيرة هتلر ألفه مؤرخ بريطاني قال فيه إن الزعيم النازي النمساوي المولد كان يتجنب أي نشاط جنسي خوفاً من الإصابة بعدوى، يعني كان نشيطاً ولكنه مخلصاً في علاقاته، وكتب مؤرخ ألماني أيضاً أن الزوجين هتلر وإيفا براون استمتعا بحياة جنسية سعيدة وصحية. هذا أيضاً مكتوب في الريفيو، فكيف يكون الرجل بخصية وبثقب سفلي حسب الكتاب الجديد؟»

«إنهم بالفعل لا ينسون ثأرهم، والله يستر ماذا يحضرون للانتقام منا بعد أن هندسوا غزوة نيويورك وألصقوها بالعرب. في السابق سودوا وجوهنا في كل أفلام هوليود، ثم دبروا لنا هذه المكيدة وها نحن في كل مكان ندفع الثمن.» صمت ثم أضاف وهما يهمان بالوقوف استعداداً للترجل من العربة: «مهما سيقولوا فلن يتهموننا بما اتهموا به صاحبنا.»

□□□ □□□□□□ .indd 100 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الخيانة

«واحدة صبرت طوال تنقل زوجها بين سبعة عشيقات، ثم انتقمت منه بالبحث عن عشيق لها حتى لا تشعر أنها خادمة في البيت يعود إليها منهكاً ليأكل وينام. لا تريد الشعور بسذاجتها وكبت عواطفها لو واصلت الخنوع، كما تقول.» كانت تشرح له عن الحالات التي تمر عليها في العمل كمرشدة اجتماعية، أملاً أن يساعدها في فهم نفسية الرجال الكثر الذين يخونون، ثم أكملت قصة تلك الزوجة: «قالت لي إن قلبها يتلوى حين تفكر في خيانته لها، ويتألم أكثر حين اكتشفت أنها أصبحت خائنة أيضاً. تقول: ماذا أفعل؟ لقد لجأت لأقاربنا ليعيدوه إلى رشده، لكنهم وقفوا معه. بعضهن يقلن المهم إنه يعود كل ليلة وينام بينكم، وآخرون يرددون مقولات أنها نزوة وتزول، وطيش شباب، ويمكن تعويض نقص. أليس الدين والأخلاق والعادات ضد مبدأ الخيانة الزوجية؟»

«نعم، بالضبط، الدين جُرم الخيانة منعاً لاختلاط الأنساب، بينما الأخلاق والعادات تحرمها حتى لا تتحول الإناث كلهن لخائنات، فكل خائن يصنع خائنةٍ معروفة له ومجهولة لغيرة.» أجاب على تساؤلها وأضاف: «عموماً قضية الرغبة في الجنس قديمة منذ بداية الخليقة. أبناء آدم قتل أحدهم الآخر ليفوز بالأخت الجميلة. وقبل آدم أو بعده كان الرجل يسحب الأنثى من شعرها..» ضحكا سوياً وأفسح لها المجال لتواصل سرد قصصها قبل أن يعطيها الرأي حول نفسية الرجال الخونة.

«واحدة أخرى تأكدت من خيانة زوجها، ناقشته على أمل أن يستقيم، واستعدت له بعمل ما يمكنها جنسياً ليكتفي بها، لكنه واصل غيّه. أصبحت تراه فقط كمصدر للمال يصرف عليها والأولاد وبحثت عن حب جديد وأصبحت متيمة وعاشقة من جديد لمن يُطري عليها بكلمات ترطب الفؤاد. أحياناً تبحث عن بقية حب واحترام لزوجها فلا تعثر عليه حتى بمجهر. أحياناً أخرى ترى في حبها الجديد تعلق أرعن وإشباع

□□□ □□□□□□ .indd 101 □□/□□/□□□□ □:□□ □

لجوع، لكنه أيضاً شيء رزين بل وعفيف كونه أصبح حباً وليس إرضاء نزوات كما يفعل زوجها.»

«الحب شيء والجنس شيء آخر تماماً. الأول يربط بين اثنين بشكل دائم سواء عبر الزواج أو الصداقة الجنسية، لكن الجنس الممارس مع الكثيرين يعود لأسباب فطرية عند اولئك الذين يمكنهم فعل الجنس دون خوف من أي رادع مادي أو معنوي أو قانوني.» فهم من نظرتها إليه أنها لم تستوعب غايته من هذا الحديث، فأكمل: «غالبية الخونة من الرجال يفضلون الجنس، بينما غالبية الخائنات يفضلن الحب.» لم تتغير ملامحها وهي منصته فأضاف: «أنت تعرفين عن الحالات التي تصلك ضمن مجال عملك، لكن الكثير من الناس لا مشاكل مشابهة لديهم، أو هم على قدرة لكبتها أو إخفائها. الرغبة في الجنس فطرية كما قلت لك، والطيبون يمكنهم كبتها والاكتفاء بالقليل والمصرح به، بينما آخرون يتصرفون بغير ذلك. تعرفين أن السلطة تغري بالجنس، وفي عصر الإنترنت هناك بدائل للاستمتاع بالجنس ولو نظرياً وهذا من الأسباب الإضافية التي تدفع بالذكر للبحث دوماً عن التغيير والتبديل. ربما هي خاصية ذكورية ومرتبطة بالتسلط..» أرادت مقاطعته فأشار إليها بالانتظار وأكمل: «رؤساء أمريكا وبالرغم من موقعهم السياسي والاجتماعي لم يترددوا في استعمال سلطتهم .. جونسون مثلاً أعاد ترتيب غرف ضيوف البيت الأبيض لتتسع لشخص واحد فقط وأصبح يدعوا النساء الجميلات وأزواجهن من المتملقين للحفلات والمبيت في البيت الأبيض .. في الليل يختار واحدة ويذهب لغرفتها ويخبرها أن تفسح المجال في السرير لرئيسها. قصص آل كيندي مع النساء معروفة واتُهموا بقتل مارلين مونرو. كلينتون فعلها وانكشف أمره وثبت في الرئاسة. وقبل هؤلاء تكرر الفعل مع ملوك وأباطرة وخلفاء، فكل من يستطيع فِعلها، فَعلها.»

«قصدك باختصار، الخيانة شيء طبيعي عند الرجال؟» سألته بحزم.

«الخيانة الجنسية، نعم هي شيء فطري وتصبح طبيعية عند الذين عجزوا عن تطبيع أنفسهم مع الأخلاق والمبادئ المتفق عليها، وهي شيء

□□□ □□□□□□ .indd 102 □□/□□/□□□□ □:□□ □

طبيعي عند ضعاف النفوس إذا أتيحت لهم فرصة، وعند المتسلطين بالمال أو الجاه أو القيادة إذا لم يوجد من يردعهم.»

«والعمل؟»

«التقريع والذم للمخالفين، وسعي الإناث لإشباع حاجة الزوج جنسياً، لكن المعاملة بالمثل ليست حلاً.»

«لا أدري إذا كانت رؤيتك صحيحة، ربما هي كذلك. في الكثير من القصص التي تصلني أصبحت النساء تطبق نظرية المساواة بتقليد الزوج في الخيانة، ومن يكنَّ غاضبات يعاقبن الزوج بالتمنع عن التجاوب الجنسي، مثل التي قالت إنها أصبحت تكره زوجها إلى درجة استباق موعد عودته للبيت لتنام على السرير بالعرض فتجبره على اللجوء للكنبة.» وافقها بالإيحاء برأسه وتأسف لها عن فشله في العثور على حل لأول مشكلة في تاريخ التكوين البشري.

□□□ □□□□□□ .indd 103 □□/□□/□□□□ □:□□ □

البوسطجي

عمره الآن يقارب التسعين، تقاعد من عمله قبل ربع قرن، واكتشف بالصدفة أنه قد أنجب أكثر من ١٣٠٠ ولداً وبنت، أو بمعنى آخر توقف البحث عن المزيد من أبنائه. هو بالطبع ليس من الأمراء أو الشيوخ الذين يتزوجون عذراء كل يوم خميس، لكنه عمل كساعي بريد في مدينة ناشفيل بولاية تينسي الأمريكية أثناء عقد الستينيات، ويعتقد أنه كان آنذاك يشبه مغني الروك الشهير جوني كاش، أو هذا ما سمعه مراراً من سيدات المدينة، بل غلب الظن على بعضهن أنه جوني يدور على البيوت متنكراً كساعي بريد، كما قال وهو يبرر ما حدث.

في عام ٢٠٠١ كلف رجلان من سكان المدينة، لا يعرف أحدهما الآخر، كلفا رجل مباحث خاص للبحث عن والد كل منهما. بعد إجراء فحص الجينات، الذي أصبح في متناول الجميع وبسعر زهيد، اتضح للمُكلف أن الرجلين من والد واحد، فاشتعل حب الاستطلاع لديه. جمع معلومات عن مكان سكنهما وظروف حياتهما لكنه لم يتوصل إلى رابط بينهما، فتحتم عليه طلب المعونة من آخرين لفحص جيناتهم. بدأت الفكرة تتدحرج واتضح اشتراك العشرات ثم المئات في جينات الأب. هنا انتقل المُكلف بالمهمة لفحص جينات المتقاربين في السن والسكن، وفي تصيد جينات من يحتمل أن يكون الأب. بعد خمسة عشر عاما من البحث توصل إلى ١٣٠٠ واحد لهم الأب ذاته وتعرف على الأب حين قرر تفحص جينات موزعي الحليب والبريد.

قال العجوز لرجال الإعلام المحلي بعد انتشار الخبر أن موانع الحمل لم تكن منتشرة في الستينيات ودافع عن نفسه بالقول: إنه لم يفعل شيء يُخجله، كانت الستينيات أيام جميلة وكنت أقلد جوني كاش في اللبس وتسريحة الشعر وهذا نجح تماماً مع السيدات. وتذكر مبتسماً:

□□□ □□□□□□ .indd 104 □□/□□/□□□□ □:□□ □

كان بعضهن يتظاهرن أنني جوني كاش بالفعل، ولا أعرف إذا كن يصدقن ذلك أو يحاولن اقناع أنفسهن أنني جوني.. وعموماً لم يكن بوسعي رفض طلق سريع أثناء العمل.

لم يسجل شبيه جوني أعداد السيدات اللواتي استجاب أو استجبن له، لكن المكلف بالبحث يقول هناك المزيد من الأبناء وإنه أوقف البحث حتى لا يتسبب بخراب بيوت أناس لديهم آباء، وفي الأصل أدلى الكثيرون ممن تم تحديد أبوتهم بالمعلومات بعد ضمان السرية الشخصية، والبعض منهم ارتاح لمعرفة الحقيقة ولا يكنون أي حقد على الرجل العجوز، فالمهم أنهم عرفوا الأب وشكله وجيناته وهذا يساعدهم في تجنب الأمراض أو معرفة ما قد يصيبهم بالوراثة.. ومن حسن حظهم أن جوني الأصلي لم يكن والدهم، فقد توفى عام ٢٠٠٣ عن واحد وسبعين عاما عانى في أواخرها من مرض السكر والباركنسون والإدمان.

□□□ □□□□□□ .indd 105 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 106 □□/□□/□□□□ □:□□ □

أساطير

□□□ □□□□□□ .indd 107 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 108 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الحب والجنون

في البداية كانت أنواع المحاسن والمساوئ تتعايش سوياً بل وتلعب مع بعضها في كوكب فارغ من البشر والحيوانات. في مواجهة الملل اتفق الطرفان على اللعب سوياً واخترعا لعبة الغميضة. قفز الجنون من فريق المساوئ وأغمض عينيه وأخذ يعد للمائة متيحاً للجميع فرصة التخفي، وكانوا قد حددوا مخابئهم سلفاً ما عدا الحب الحائر على الدوام. اختبأت الخيانة والرقة والولع والشوق والكسل والكذب الذي أعلن على مسامع الجنون أنه سيختبئ تحت الحجارة ولكنه قفز إلى النهر.

اقترب الجنون من العد إلى المائة وبقي الحب حائراً ماذا يفعل، هل يختبئ أم يظهر، وقبل فتح الجنون عينيه رمى الحب نفسه بين أشجار الورد وأشواكها. كان أول من عُثر عليهم الكسل إذ تكوّر في مكانه معتقداً أن الجنون سينظر بعيداً. ثم خرج الكذب من النهر لالتقاط أنفاسه. نظر الجنون لأعلى فاذا الرقة تحلق باتجاه القمر فناداها، وضرب الأرض برجله طالباً من الشوق أن يظهر، وأزاح بقدمة كومة زبالة فإذا بالخيانة مختفيه فيها وتضم الحسد في حضنها... بسرعة فائقة وجد الجنون البقية، الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ولكنه لم يعثر على الحب، فأخذ يدور ويقفز بحثاً حتى لا يفوز الحب في اللعبة، وهنا همس الحسد للجنون بمكان الحب، فأخذ خشبة مدببة وصار يطعن شجر الورد لإخراج الحب من مخبأه. طعنات قليلة وسمع الجميع بكاء واهات الحب الذي وقف بين الورود وهو يعلن أنه أصيب وأصبح أعمى من ضربات الجنون.

«يا إلهي ماذا فعلت ؟» قال الجنون نادماً وصار يسترضي الحب ويعلن استعداده لعمل أي شيء لإصلاح غلطته هذه.

«لن أرى طوال العمر..» قال الحب بهدوء ووداعة «..فكن دليلي لأتمكن من الاستمرار». على الفور أعلن الجنون قبول هذه المهمة، ومنذ ذلك الحين يتجول الحب الأعمى في الأرض والجنون يقوده.

□□□ □□□□□□ .indd 109 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الحياة والموت

مع أول صرخة للمولود ماتت الأم، فالتقى الموت مع الحياة واستكملا حوارهما الأزلي المتشعب والمتجدد مع تغير الأزمنة والعادات. «إنها زوجة رجل غني وماتت لتنجب له ولده ووريثة الأول. كانوا يعرفون أنها لا تتحمل الحمل والولادة. الآن ستدفن وكأنها خادمة، لن يضعوا معها في القبر متاع أو مصاغ أو طعام يؤهلها لما بعد الرحيل.»

«لقد كف الناس عن الخوف منك وتركوا تلك العادات منذ زمن.» قالت الحياة للموت وهي تعرف أنه يناكفها.

«بل أصبحوا يخافوني أكثر مما مضى. قبل الأديان اخترعوا قصة الحياة بعد الموت حتى يهونوا على أنفسهم، وأخذت الأديان الفكرة ووعدتهم بالنعيم وهددتهم بالجحيم، كل حسب عمله، فتعاظم خوف الطرفين مني. هل رأيت صالحاً أو طالح لا يخاف الموت؟ كلهم تمسكوا بفكرة الحياة بعد الموت ليهونوا على أنفسهم، ولكنهم لا يأخذون الآن معهم ما يعينهم على الحياة في الآخرة، لأن النعيم نعيم، إذا كان مصيرهم هناك، وكل ما قد يحملونه لن يغنيهم عن الجحيم إذا تقرر أنه مقرهم.»

«صحيح..» قالت الحياة في محاولة لرد كيد الموت وأكملت: «أنت إرهابي تُعيش البشر خائفين من لقاءك..»

«بل أنت تدللينهم فيتمسكوا بك على أمل التمتع بالمزيد من المغريات الملموسة، ومن الطبيعي أن يخافونني لأن أحداً لم يعد بعدي ليخبرهم ما رأى هناك.»

«أخبرني إذاً ماذا ينتظرهم عندك لأهوّن عليهم" توسلت الحياة للموت.

□□□ □□□□□□ .indd 110 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«لو أخبرتك يا جميلتي ماذا عندي لهم بعد الاستضافة لكرهوني أكثر ونغصوا عليك أيامك وهم يتمسكون بك..» صمت الموت ونقلت الحياة نظراتها عن المولود إلى الموت فأكمل حديثه: «هذه المسكينة ستدفن على وجه السرعة وسيتولد الدود من أحشائها وستبقى عظامها هناك حتى تذوب هي الأخرى. لن يُحدثها أحد في القبر، ولن تحيا من جديد لتعاقب أو تكافأ. هكذا كان الحال منذ ملايين السنين وهكذا سيبقى.»

□□□ □□□□□□ .indd 111 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الصديق

«أصدقاؤك هؤلاء مثل قلتهم.» قال أبو محمد لولده محاولاً ضبط نغمته حتى لا يجرح شعور وحيده. لم تكن هذه المرة الأولى التي يُشعر بها المختار ابنه بعدمية أصحابه، وفي كل مرةٍ يدافع الابن عن خياره ويدعي أنهم أخلّاء أوفياء، فلا يجد الأب مناصاً من السكوت، لكنه قرر أن يلقن ولده درساً يفيده في حياته.

ذات صباح ذهب المختار إلى الجزار وطلب منه ذبح خروفاً ووضعه في كيس قبل أن يتصفى دمه، ثم عاد مع أحد الحمالين بالذبيحة في الكيس المُشرب بالدم إلى بيته وركنه خلف باب البيت. «خير إن شاء الله يا والدي ؟» قال محمد للمختار حين عاد قبل المغرب للمنزل وشاهد والده يجلس على كرسي ويضع يده على خده وتشع الكآبة من وجهه.

«من أين يأتي الخير . .» أجاب المختار متصنعاً الزعل الدفين، فألحّ ابنه بالسؤال لمعرفة سر والده وليخفف عنه. «حين توجهت اليوم إلى السوق احتك بي إنسان حقير وأغضبني إلى درجة أنني سحبت الشبرية من حزامي وغرستها في قلبه فخر صريعاً، وأصبحت مضطراً لوضعه في كيس حتى لا ينكشف أمري، وحملته إلى هنا وهاهو خلف الباب.» نظر الابن حيث أشار المختار فشاهد الكيس الملطخ بالدماء.

«لا تقلق يا أبي، ساذهب إلى بعض أصدقائي الآن واحضر بعضهم ليساعدوني في حمل الكيس ودفنه مع حلول الظلام، ويا دار ما دخلك شر.» كان الابن يعرف أن رجال الحارة وبعض أصدقاء والده يتوافدون كل ليله للسهر عند المختار، وبالتالي يجب نقل الجثة قبل وصولهم. هكذا انطلق محمد إلى أقرب الأصدقاء على منزلهم وطرق الباب فخرج صديقه أنور مهللاً مرحباً وطلب من محمد الدخول لكن هذا كان في عجلة من أمره وأخبر أنور بما حدث وبالمطلوب.

«أنت مجنون ابن مجرم! كيف أبوك يقتل راجل وأنت تريد أن تلبسني جريمة! أنت صديقي ولن أبلغ الشرطة عن أبيك، ولكن أكد لي أنك

□□□ □□□□□□ .indd 112 □□/□□/□□□□ □:□□ □

لن تخبر أي انسان أنك أخبرتني..» فهم محمد الرسالة وترك أنور واتجه إلى الصديق التالي فسمع منه كلام مشابه، وقال الصديق الثالث ما معناه: أبوك يقتل القتيل وأنا أدفنه لكم، ثم أغلق الباب في وجه صديقه.

عاد محمد إلى البيت مطأطئ الرأس إذ تخوف من نشر الخبر عند بقية الأصدقاء فلا يساعده أحد ويصبح والده عرضة للوشاية. وجد المختار جالساً كما تركه فأخبره بما سمع من الأصدقاء وتذكر حينها كل ما سمعه من نقد المختار لأصدقاءه. «أنت تعرف منزل صديقي أبي عبدالله..»

«نعم نعم» قاطع محمد حديث والده لاستعجال أي إجراء يفكر فيه المختار، فأبو عبدالله هذا من أقدم أصدقاء الوالد ولا يغيب عن الجلسات المسائية إلا نادراً ولظروف قاهرة.

«..إذهب إلى بيته وأخبره بالأمر.» قبل أن يكمل المختار حديثه كان محمد قد اجتاز الباب حيث تقبع الجثة، وركض حتى وصل إلى بيت أبوعبدالله فأخبره بالأمر وهو يلهث. هدأ الرجل من روع ابن صديقه وطلب منه الانتظار ريثما يغير ملابسه بأخرى ملائمة لما ينتظره من عمل.

«يعطيك العافية يا مختار، ولا تحمل أي هم.» قال أبو عبدالله لصديقه مربتاً على كتفه ثم قبل رأسه وأخبره أن كل شيء سيكون على مايرام. طلب الصديق من محمد أن يضع الجثه على ظهره ويسندها أثناء المسير واتجه إلى مجرى ماء على مسافه من القرية. أنزل الجثة عن ظهره وحفر في طرف الماء بعمق يكفي لمواراة الكيس ومحتواه وأهال عليه الحجارة فعادت المياه إلى مجاريها وعاد الاثنان إلى المختار يبشرانه بإتمام المهمة.

ابتعد محمد عن أصدقائه وأكثر من مرافقة والده وحضور الجلسات المسائية حتى جاء ذلك اليوم الذي أظهر فيه المختار غضباً على ما يقوله صديقه أبو عبدالله في شأن ليس بذي أهمية. حاول الصديق محاجة المختار فأسمعه هذا سيلاً من الشتائم النابية أمام الحضور فازداد استغراب محمد من تصرف والده المشين أمام الناس.

□□□ □□□□□□ .indd 113 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«يا مختار لماذا هذه الإهانة أنا لم أخطئ بما يستدعي قولك؟» تسائل أبو عبدالله أمام المستمعين، فما كان من المختار إلاّ النفخ في كفه وتسديد لطمة على خد صديقه. هنا وقف أبو عبدالله غاضباً مدافعاً عن كرامته وقال: «إسمع يا مختار، أنت أهنت كرامتي أمام الناس بغير حق، ولكني والله العظيم ومهما أغضبتني لن أقول عن الشيء الذي تجري من فوقه المياه.» هنا نظر المختار لولده وكأنما يقول له هذا هو الصديق الصدوق، ثم انتصب واقفاً يقبل رأس صديقه ويطلب منه السّماح وهمس له أنه سيشرح له الأمر لاحقاً.

□□□ □□□□□□ .indd 114 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الغنية

استقبلت عمها ببشاشة والتف أولادها من حولة يأخذون ويعطون الحنان، ويقفزون على الأرائك ويرتمون على سجاد الصالون. دخلت هي إلى المطبخ وأشعلت الغاز على درجة منخفضة حتى لا تغلي المياه بسرعه وريثما يقرر عمها إذا أراد شرب الشاي أو القهوة أو أحد أنواع الزهورات الكثيرة المتوفرة في خزائن مطبخها المصنوع من خشب البلوط. حملت من الثلاجة عصير مانجو، سكبت بعضه في كاسه بلورية، حملتها على صينية فضية وقدمتها إلى عمها: «عندي عصائر أخرى، لكني أعرف أنك تحب المانجو والجوافة الحمراء.»

«فعلاً حبيبتي، هو كما تقولين، المانجو لذيذه بالرغم من كثافة عصيرها وحلاوته.» نظر إليها وأبدى إعجابة بملابسها الزاهية، وأدار ناظريه في الصالون فإذا به نظيف مرتب وفي زاويته تلفزيون حديث ربما بحجم أربعون بوصة. «كيف حالك وصحتك وزوجك، وشغلك، ما شاء الله الأولاد يشعون صحة وبهاء.» كان يعرف أنها وزوجها اشتريا هذا البيت بالتقسيط الشهري، ويجددان في بعض الأثاث.

«الحمد لله عمي، كل شئ على ما يرام.» سكتت، وعرف بالتجربة أن هناك ما يضايقها. خمن أنها تشعر بالضيق نتيجة لنقص السيولة، أو ربما نكد في العمل كونها تقضي أحياناً أطول من ثماني ساعات، حيث يكون أولادها في هذه الفترة في رعاية حضانة، إذ تودعهم فيها صباحاً وتستردهم بعد الظهر عندما تعود بسيارتها من العمل. «أعملك شاي أو قهوة ساده أو حلوة او نسكافيه بالحليب؟» تبسم لها، فأكملت: «إن شاء الله مش مستعجل الآن وتتغدى معانا .. كل شئ متوفر في الثلاجة.»

«خليها بدون أكل فأمامي موعد بعد ساعة وحبيت أشوفكم في الطريق. اعملي شاي بالنعنع.» قال لها ووقف معها وذهبا سوياً إلى

□□□ □□□□□□ .indd 115 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المطبخ. «إن شاء الله مش زوجك اللي مغلبك ومنكد عليكي؟» تبسمت نافية برأسها أن يكون زوجها السبب، وخطر لعمها فكرة يعزز بها قناعتها بالرضى، لكن بعد أن تبثّ له شكواها. تحدثت عن ضيق اليد في تسديد الأقساط والمصاريف، وتعب العمل واستمرار التلميح هناك بالحد من الموظفين. «لكنكم تتدبرون مما يرزقكم الله، وما النكد إلا نتيجة لتراكمات نفسية وتخوف من المستقبل.» وافقت على ما قاله عمها وخرجا من المطبخ وجلسا على طاولة السفرة حتى لا تقع حوادث بين الأطفال والشاي الساخن. «تعرفين أنك تعيشي أفضل من أي ملك أو سلطان أو خليفة أو إمبراطور من أيام سيدنا آدم حتى ما قبل مائة عام فقط.»

«أحسن من هارون الرشيد؟» سألت عمها وهي تضحك.

«أحسن من هارون، أنت تقصدين طبعاً أحسن من زبيدة. أنت أحسن من كلاهما، فعلى الأقل لا تقاسمين زوجك مع نساء أخريات مثل المسكينة زبيدة.» ضحكا سوياً وارتشف بعضاً من الشاي غير المحلى إلاّ بالنعنع الطازج. «اختاري من تريدين من عظماء التاريخ وسأثبت لك أن حياتك الآن أفضل من حياتهم.»

«أحسن من ملوك الأندلس ؟ لقد طالعت عن البذخ الذي عاشوا فيه.»

«كان بذخاً بمنظور ذلك الزمان. الخليفة الناصر، وهو الأشهر بين أمراء الأندلس والأكثر سطوة في زمانه وأخضع ملوك الفرنجة فتتابعوا إلى بلاطه. وجدوا في مذكرات هذا الخليفة بعد موته أن الأيام السعيدة في حياته التي صفت له دون تكدير هي أربعة عشر يوماً سجلها بخط يده، في أي يوم وشهر وسنه كانت. بقية أيامه تعاسه وربما أشدّها يوم ذبح ابنه وأخاه لأنهما تأمرا عليه. الخليفة لم يكن عنده خيارات شرب الأشياء أو استعمال الأدوات المتوفرة في مطبخك. كانت ملاعقه خشبية، ويطبخون له على الحطب. في زمانه اخترعوا مواسير الرصاص وقنوات المياه الجارية، ولكنها ليست بنقاء مياه صنبورك، ولم يكن يحلم بمرحاض وشطاف مثل ما في حمامكم. عندما كان يزور مدينة الزهراء، قيد الإنشاء آنذاك، كان عليه الركوب لبضعة ساعات ليقطع

□□□ □□□□□□ .indd 116 □□/□□/□□□□ □:□□ □

عشرة كيلومترات عن قرطبة، وأنت تجوبين بلاد بسيارتك في زمن سيعتبره الخليفة كلمح البصر.. أما الأخبار فكانت تصلة عبر إشارات الدخان أو يحملها الخيالة لأسابيع. أنت يصلك الخبر مباشر بالصوت والصورة عبر المحيطات، وبدل مهرج أو اثنين في بلاط الخليفة لديك التلفزيون..» ارتفعت ضحكاتها وقد استوعبت مراد عمها. "أتعرفين أن المنصور، وهو الحاجب الذي استولى على قيادة الأندلس من حفيد الخليفة الناصر، كان أثناء الغزوات يُحمل على نعش خشبي لمعاناة قدميه من مرض النقرس، وكان يتمني أن يتنازل عن الحكم ويصبح مثل أحد العبيد الذين يحملونه في مقابل الشفاء من ألم النقرس .. الآن نتناول حبه دواء يومياً تجنبنا معاناة هذا المرض." نظر إليها فاتسعت ابتسامتها وهجم عليه صغارها.

□□□ □□□□□□ .indd 117 □□/□□/□□□□ □:□□ □

النصاب

بدأت القصة عندما اتصل مدير شركة القدس مع أبي صباح يمتدح طعم زيته الذي تذوقه لدى صديق اشترى تنكة من ذلك الزيت، وسأل المدير إذا كان لدى أبي صباح المزيد فإنه سيشتري خمسين تنكة بسعر ثمانين ديناراً للواحدة وهو سعر مناسب للطرفين. طمأنه أبي صباح أن الكمية تجهز في العصرة التالية وسيبقيه على اتصال. وكون ثلث زيتون أبو صباح لا يكفي لإنتاج خمسين تنكه أخبر المشرف على الأرض والذي يأخذ ثلثي المحصول مقابل ثلث لأبي صباح الذي عليه فرط الزيتون مع عائلته وعماله.

اتصل المشرف برقم المدير مراراً فلم يرد عليه، ثم اتصل أبو صباح بالرقم فلم يستجيب له فقرر الأخير عدم الانخراط أكثر في هذه القصة. بعد ساعات اتصل المدير برقم المشرف واعتذر عن عدم الرد كون ابنته الصغيرة جرحت وتوجب أخذها للمستشفى وأعطى المشرف رقمه الخاص المفتوح على الدوام، وطلب شراء ثلاثين تنكة زيت من العصرة التالية، ثم عاد واتصل مجدداً وزاد الكمية إلى خمسين سيأخذ الموظفين ثلاثين وسيوزع لله العشرين الأخرى.

في المساء تم عصر الكمية واتصل المشرف بمدير شركة القدس واتفقا على اللقاء في جنوب العاصمة حيث الشركة وعلى الدفع النقدي مقابل الزيت بالسعر المتفق عليه. في الصباح انطلقت سيارتين بك آب في كل منهما نصف الكمية إلى الدوار الشهير في جنوب العاصمة حيث منطقة كراجات وفوضى. تواصل الطرفان وقال المدير إنه من الأفضل الانتظار عند الدوار لأن موقع الشركة يصعب العثور عليه بالوصف رغم أنه بالقرب من شركة مرسيدس، وأن شاباً قد أرسل إلى الدوار يحمل المبلغ المطلوب وسيدلّهما على مخزن الشركة.

□□□ □□□□□□ .indd 118 □□/□□/□□□□ □:□□ □

كان صاحب الزيتون والزيت على تواصل شبه دائم مع المشرف يأخذ منه كل التفاصيل. مرت دورية شرطة بالمنتظرين وتم إخبارهم أن عجلات البيك آب بحاجة لتغيير وكذلك الزجاج المشعور، ثم استفسر ضابط الشرطه عن سعر الزيت بعد أن لحس ما كان على التنك، وأعطوا المشرف هواتفهم ليدبر لهم زيت ولكن بسعر أقل من ثمانين، ثم انطلقوا. وصلت هذه التفاصيل لصاحب الزيت الذي عرف أيضاً أن الشاب الذي يحمل النقود قد تأخر ربع ساعة للآن.

«عندما يصلك الشاب لا تتحرك خلفه إلا بعد التواصل معي، واتصل الآن معهم لمعرفة متى سيحضر الشاب.» لقد توغوش صاحب الزيت وخطر له فجأة أن الأمر كله نصب واحتيال وأن البضاعة والسيارتين والرجلين في خطر.. سيقودهما الشاب حيث ينتظر آخرون من الزعران فيأخذون الجمل بما حمل وسيأخذ المشرف ورفيقه كمية من الضرب بل قد يقتلا إذا صعدا في المقاومة.

«قال المدير إن زحمة السير قد أخرت الشاب وأنه سيكون عندنا بعد خمس دقائق.» أخبر المشرف صاحب الزيت الذي طلب منه الانسحاب فوراً وإذا اتصل معه المدير يخبره أنه تحرك عائداً ويطالبه باللقاء في موقف السيارات لينقل الزيت لسيارة أخرى بعد دفع الثمن. كان صاحب الزيت متأكداً أن المدير لن يتصل، وعلى الأرجح إن السيارتين كانتا تحت الرقابة منذ وصولهما إلى الدوار، وحين توقفت الشرطة وتم تبادل أرقام الهواتف توجس المراقبون أنهم ضحية فخ أمني.. وبالفعل لم يتصل المدير النصاب، ولم يرد بعد ذلك على المكالمات.

□□□ □□□□□□ .indd 119 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 120 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الحب

□□□ □□□□□□ .indd 121 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الجنس والنفاق

«عمو، هل كل الرجال مخادعون مثله؟» لم يعثر على جواب فوري صادق حين طرحت عليه هذا السؤال في منتصف محادثة هاتفية. كانت تشتكي له من صاحبها الذي خدعها وتزوج أخرى. لقد تعرف على البنت عبر صديقها، وهي الآن تستنجد به ليعمل أي شيء في صالحها ولا تريد الاقتناع باستحالة المهمة. دار في ذهنه أن يصدمها بحقيقة أن صاحبها لا يريدها بأية حال، أو بالاعتراف لها أنه قد كتب كتابه. «هل السؤال صعب ويحتاج منك كل هذا الوقت للتفكير؟» سألته مجدداً بعد صمته التأملي.

«إنه أصعب مما تتصورين، هذا لو طلبت اجابة صادقة..» تروى وظن أن هذه الإجابة تدين كل الرجال، وأكمل: «..الإنسان سر غامض وحتى من يجيب عن ذاته فقط، فالإجابة مقرونة بزمن وظرف معين.»

«لم أفهمك عمو، هل يمكن أن يكون الرجل مخلص في ظرف معين وخائن في ظرف آخر؟»

«أنت تتحدثي وكأن كل الإناث مخلصات صادقات لأصدقائهن وأزواجهن، بينما الظن السائد بين الرجال إنكن أميل للخداع، ولذلك يحجبونكن ويحتجزونكن في البيوت وتراقبن أينما ذهبتن.. أعرف أن هذا تعميم ولكن الكثير من الوقائع ونسب وأسباب الطلاق تؤكد هذا الحال.» ساد الصمت بينهما لثوانٍ حتى تشكك أنها على الخط فقال: الو!

«أنا معك عمو .. في خيانة بين بعض المحجبات والمكشفات، لكني أظن أن كل الرجال قابلون للخيانة إذا أتيحت لهم الفرصة الآمنة، وهذا لا ينطبق على الإناث.»

□□□ □□□□□□ .indd 122 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«لو كان رأيك صائباً فربما للأمر علاقة بالطبيعة الذكورية حيث يريد الذكر نشر جيناته بأوسع قدر..» صمت وهلة ثم أضاف: «لكن الإناث لديهن نفس الغرائز والرغبة في إنجاب الأطفال من أفضل الذكور لضمان جودة الإنتاج. ما يردع الذكر والأنثى عن الانطلاق لتلبية نداء الغرائز هو ما نسميه الأخلاق، فإذا انعدمت أو تناقصت يتطلع الذكر أو الأنثى إلى الاستجابة. هذا الأمر لا يقتصر على النساء أو الرجال.»

«لو اطلقنا شاب جميل ليغري الإناث فمن المؤكد أن الاستجابة لن تكون كاملة مئة بالمئة وسيلاقي الكثير من الرفض، لكن لو فعلنا العكس فإن الفتاة الجميلة ستغوي أي رجل كان، سواء شاب أو عجوز، مثقف أو أمي، متدين أو ملحد، طالما شعر الرجل بالأمان وتأكد أن الفتاة لن تفضح أمره ولن تبتزه ولن تكلفه الجهد أو المال، فإنه سينكحها فوراً، أو يمارس معها ما تريده هي وتسمح به أو تطلب منه فعله.» فكر قليلاً فيما سمع منها، ومر في خياله بعض الذكريات المؤيدة والأخرى المناقضة لما تقول هذه الفتاة، التي وقعت في فخ مجاراة صديقها وهي الآن تتحمل عقبات صدمة الانفصال وتطلعه إلى الزواج من فتاة أخرى لا يعرف الكثير عن ماضيها، بل هي تعيش في بلد آخر.

«لو صدقت مقولتك، وهي غير مجربة، فهذا يعني صحة ما يقوله رجال الدين نقلا عن تعاليمهم وتفسيراتهم، بأنكن شياطين تغرين الورعين، أو كما قال مرشح الرئاسة الأميركية عن منافسته، بأنها شيطانة تتحالف مع الشياطين.» كان يشعر باليأس والحقد الذي ألم بها من هذه التجربة، وندمها على هدر فترة الصداقة واستغلالها العاطفي، لذلك لم يخبرها أن صاحبها أصبح بحكم المتزوج، وكان يحادثها في عموميات العلاقات العاطفية البشرية حتى لا تطالبه بعمل شئ لا يستطيع فعله. «أنت تعرفين أن الإناث في العالم الغربي يعتبرن ما مررت به تجربة يتوجب على كل فتاه أن تمر بها قبل الزواج، يمكن تصادق مرة أو خمس مرات، ومن لا تصادق وتتزوج فوراً من أول عابر سبيل تُعتبر ناقصة تجربة، والرجال لا يشترطون أن تكون عرائسهم عذارى، وبالتالي ما مررت أنت به هو شيء إيجابي في معظم بلاد العالم، ويكفيك التجربة النفسية والآراء التي أكتسبتيها وتذكرينها الآن..»

□□□ □□□□□□ .indd 123 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«ما يزعجني أنه وعدني بالزواج وتملص لاحقاً بحجة أنه لا يريد الزواج، وهاهو عازم على الزواج من فتاة أظن أنه لا يعرف الكثير عنها.» اندفعت كلماتها بقوة، فصمت حتى سمع نهنهة بكاء على الجانب الآخر من الخط.

«مشكلتنا في العالم العربي والإسلامي أننا تراجعنا للوراء في قضية الجنس التي هي قضية حب، وهي أول متطلبات الحياة، ونعيش زمن أشبه بما مر به الأوروبيون منذ قرون حين كانوا يتهمون الجميلات العاصيات جنسياً بالسحر والشعوذة لأنهن رفضن طلبات الكهنة والأغنياء. نحن العرب كنا قبل وبعيد الإسلام منفتحين جنسياً، ومشاكلنا بدأت مع تقييد الحرية العاطفية بقوانين ومسميات أخلاقية..» لاحظ أنها هدأت قليلاً وانشدت للحديث الذي يعطيها براءة، فأكمل سائلاً: «هل تعرفين كم رديف لكلمة نكاح في اللغة العربية؟»

«لا أدري، عشرة مثلاً»

«1480 كلمة تعني النكاح، مما يدل على كثرة الاستعمال وتنوعه وبالتالي تماشيه مع طبائع الناس قبل أن يحتجزوا الحب في قبر عميق.. وهناك ٢٣٨ اسم للقضيب و٩٩ لما يعادله عند الأنثى مع أسماء عدة لما هو خارج الرحم و٣٠ إسم للمؤخرة وعشرات الصفات للذكر وللأنثى أثناء الجماع، وكل ذلك كان طبيعياً ومستعملاً في اللغة اليومية بدون خجل..»

«نعم نعم.. وشهوة الرجال العرب الآن ناتجة عن الحرمان والتحريم بأنواعة، ولكن متى حدث التغيير السلبي هذا؟»

«على الأرجح أثناء الدولة العباسية..» قال لها وهو يبحث عن مقتطف طالعه أخيراً للجاحظ الذي توفي عام ٢٥٥ للهجرة الموافق ٨٦٨ للميلاد.. «..وإليك ما قاله الجاحظ بهذا الصدد (وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحر والأير والنيك ارتدع

وأظهر التقزز، واستعمل باب التورع. وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع. ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل، ونذالة متمكنة. . . . وبعد، فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل اللغة، وكان الرأي أن يلفظ بها، لم يكن لأول كونها معنى إلا على وجه الخطأ، ولكان من الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها.) هذا يشير إلى بداية التحجر والنفاق الذي لاحظه هذا الأديب، وهو ما أصبح يؤثر على مجريات الحياة ويتحكم في الناس وهم لا يعلمون.» لاحظ هدوئها، وقبل أن تعيده إلى الشكوى من صاحبها وتمنيها تدخله، أخبرها أن بطارية الهاتف تكاد أن تفرغ، ووعدها أن يلتقيا قريباً ليتناقشا في الأمر.. لم تحتج واستسلمت للانتظار.

□□□ □□□□□□ .indd 125 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الجنس والحلم

كانت هادئة وديعة وفي عيونها مسحة حزن. تأملها وهما يستعدان للجلوس في المقهي وشعر بتردد في إبلاغها ما عزم عليه. تخوف أن تنفجر بالبكاء، وسألها إذا أرادت شيئاً مع القهوة، وشجعها على تناول جاتوه ولكنها اكتفت بالكابتشينو. «أنت إنسانة طيبة وجميلة طبعاً، ولست مثل أنواع أخرى من إلاناث الشرسه، وتستحقي كل خير.» أراد أن يشجعها وينشط رباطة جأشها تمهيداً لما أصبح لا مفر من إبلاغها إياه.

«شكراً عمو، وبصراحة أنا اعتبر نفسي مثل ابنتك ومستعدة للتجاوب معك.» اطمأن لكلماتها، فقد أبعدت شكوك الظن عن لقائهما هذا.

«تذكرين أنني قد أخبرتك سابقاً برأي شخصي، بأنه من حسن الحظ انتهاء علاقتك مع صاحبنا الآن قبل أن تتم خطوبة متسرعة أو زواج بينكما، فأنت الآن على بر الأمان، وأي أسى أو ضيق تشعرين به الآن أقل بكثير مما لو تم الفراق بعد زواج..»

«ولكني أحبه..» قاطع همسها بإشارة من يده فعادت للإنصات.

«أعرف أنك تحبينه، وقد أبلغته قبل أسابيع أن الرجل المحظوظ هو من يجد الأنثى التي تحبه وتراه في أحلامها ويتزوج منها، بدل أن يتزوج من مجهولة نسبياً على أمل أن ينمو الحب بينهما لاحقاً..»

«أراه في أحلامي بالفعل ولكنه لا يستحق حبي له والعاطفة التي منحته إياها..» اطمأن أنها تتحدث عنه بصيغة الماضي وخمن أن حدسها الأنثوي أخبرها أنه قد فات الأوان للإصلاح بينهما وأن مهمته بالإشهار غدت سهلة، لكنها أكملت: «.. أنا مستعدة للتضحية وتحمله..»

«لست بحاجة لأي تضحية من أجله، فقد عقد قرانه بالفعل على

□□□ □□□□□□ .indd 126 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الفتاة الأخرى..» اتسعت حدقاتها وتبللت جفونها، فواصل كلامه ليجمد مشاعرها: «إنه لا يستحقك أبداً فأنت طيبة محترمة ولست مثل بعض إلاناث المسعورات اللواتي يتحتم على الناس إما الهروب منهن أو طخهن.» أراد من حديثه هذا ضمان ردة فعل عاقلة، وأن لا يدفعها جنون الحب إلى زيارة بيته وإبلاغ والديه الذين لا يعرفان أي شيء عن هذه العلاقة التي دامت حوالى سنتين. انهمرت دموعها بصمت فقرب إليها علبة المحارم .. «إنه بالفعل لا يستحق دموعك، وعليك أن تتخلصي من ذكراه وتصفي ذهنك تدريجياً ولا تجعلينه يسيطر على أحلام اليقظة أو النوم ..» تنهد وربت على يدها وأكمل وهو يشعر بعدمية حديثه: »رب ضارة نافعة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.»

«اللئيم الأناني..» سحبت محرمة أخرى لمسح أنفها ونظرت لجليسها متجاهلة من حولها في المقهى والذين يمكنهم بسهولة سماعها: «.. أنا زعلانة على حالي وندمانة على الوقت الذي ضيعته معه .. الطماع الأناني..» أخذت بالبكاء دون توقف عن الحديث ولم يرغب هو في كبت عواطفها: «.. أنا حالياً بكرهو وما اتمنالو الخير أبداً.. كنا رفقاء في كل مشوار وطلع بستغلني، الحيوان..» احمرت عيونها وانتفخت شفاها الرقيقة وأصاب صدرها بعض البلل الأسود من الدموع التي مرت بكحلتها. يبدو أنها كانت تعرف بالخبر مسبقاً وانتظرت التأكيد لتعلن الكراهية والندم، فالقرارات لا تتخذ فورياً بل تمر بمراحل عدة في الدماغ آخرها إعلان القرار، ورغم الشعور بأن القرار اتخذ فورياً فالحقيقة غير ذلك، فهذا في الواقع وهم دماغي لأن الأمر مر بمراحل سبقت ذلك، والإنسان لا يقود جسده، كما يظن، ولكنه يراقبه.

«لا أريد للغضب أن يتحكم في حواسك، الأفضل هو محو ذكراه من ذهنك حتى لا تقعي فريسة لاحلام اليقظة وكوابيس النوم وخطط الانتقام الجهنمي.. لن يكون هذا سهلاً ولكنه الأسلوب الوحيد..» صمت وتأمل ردة فعلها عبر قسمات وجهها فلاحظ الاهتمام بما تسمعه وتوقع أنه أصاب عصباً حساساً، فأكمل: «لو ملكنا القدرة على مسح ما نريد من الذهن بسرعة لكانت حياتنا أفضل بكثير..» أيدته بإيحاء من رأسها وهي تنظف كحلتها بمناديل. «لكننا في الواقع أعجز عن التحكم

□□□ □□□□□□ .indd 127 □□/□□/□□□□ □:□□ □

في أحلامنا، وبالكاد نتخلص من أحلام اليقظة.»

«يا ريت عمو لو الواحد تحكم في موضوع الحلم، فهذا قد يعني سعادة لثلث اليوم على الأقل ويسهل تحملنا للثلثين الباقيين.» انفرجت أساريرها قليلاً ورشفت من فنجان القهوة التي بردت منذ فترة، وأكملت: «زمان كنت أتحكم في موضوع الحلم الليلي، ولكن ليس في مساره، لكني فقدت الآن هذه الخاصية.» تبسم لها ولم يخبرها أن للعمر أحكاماً خاصة حتى لا يذكرها أنها بلغت الثلاثين من العمر.

«في سن الصبا وقبل انتهاء المراهقة يشترك الجنسين في مواضيع محددة للحلم، الموضوع المشترك الأول هو الرغبة في الطيران، والثاني هو طبعاً الجنس..»

«صحيح، أنا شخصياً كنت أحلم أنني أرتفع عن الأرض وتفقد الجاذبية تأثيرها، وأحياناً أتحكم في اتجاه الطيران وأحياناً أخرى أفشل في ذلك بل كثيراً ما كان يصعب علي الهبوط على الأرض.» صمتت وقد شعرت أنها ابتعدت عن الموضوع، فسألها إذا كانت تتمنى هذا الحلم قبل أن تنام؟ «في الواقع لا، لكني كنت أحيانا أفكر في موضوع آخر قبل النوم ثم أكمله في الحلم ببعض الشيء من التحكم..» نظرت إليه وخجلت عينيها قليلاً وطرحت عليه سؤال عن سبب اشتراك الناس في الصبا بحلم الطيران.

«ربما تكون أصولنا فضائية وبالتالي نحمل في جيناتنا خاصية الطيران التي نشعر بها كلنا في الصبا أثناء النوم ..» تبسمت وهي تستمع، وكانت تعرف أن افكاره متحررة جداً. «..هل لديك تفسير آخر لاشتراك الناس في كل مكان أثناء مرحلة معينة من العمر بهذا الحلم؟» نفت برأسها امتلاك أي تفسير، وارتاحت أساريره لانقيادها خارج إطار مأساتها، وبالتالي نجاح مهمته.. أو هكذا ظن.

□□□ □□□□□□ .indd 128 □□/□□/□□□□ □:□□ □

سلطة الحب

«عمو رتب لي لقاء مع أمه أو والده.» لقد تردد في الإجابة على الهاتف حين عرف أنها المتصلة لأن مشكلتها تجاوزت الحلول، ولكنه يشعر بالتعاطف معها، وهاهي بعد السلام والقليل من الكلام تتحدث بأريحية وتطالبه بما لا يريد عمله.

«صادقتيه لعامين ولم تتعرفي على والديه وتريدين مني الآن الجمع بينكما بعد أن تزوج رسمياً من فتاة أخرى؟» أجابها بشيء من الشدة والتنصل من طلبها، فالأمر انتهى وأبلغها بذلك في لقاء سابق، وأي تدخل من ناحيته الآن سيفهم بشكل خاطئ من قبل أقاربه وأصدقائة، عائلة الشاب. «ألا تشعرين بالعطف والتضامن مع زوجته المستقبلية التي لا تعرف شيئاً عن تلك العلاقة بينكما ولا ذنب لها، وهي الآن على الأرجح في قمة السعادة التي جربتيها أنت على مدار صداقتكم؟» أراد بتوجيه الحديث هكذا اكتساب تضامنها الأنثوي مع فتاة يُفترض أن لا تتسبب في شقائها إذا فضحت الأمر.

«كان يرفض على الدوام أن يعرفني على والديه أو حتى مكان سكن عائلته، وأنا جاريته بذلك حتى لا يشعر أنني أضغط عليه للزواج. كان يدعي أن والديه محافظين وسيؤدي التعرف عليهما إلى تخريب علاقتي معه..»

«يا عزيزتي أنت الآن تُقري أنك لم تضغطي عليه للزواج واقتنعت بسرية العلاقة بينكما، ولا أدري لماذا تريدين الآن اللقاء مع والديه بعد أن تزوج؟ بالتأكيد لن يقفا إلى جانبك، وهو لن يتراجع عن قراره تحت وطأة الضغط، والنتيجة المحتملة هي إتعاس العروس الغلبانة، وفضح العلاقة التي كانت بينكما وهذا لن يفيدك أيضاً. لا أريد لروح الإنتقام التغلب على حلمك وتسامحك ومنطقيتك.» صمت لحظات ولم ترد

□□□ □□□□□□ .indd 129 □□/□□/□□□□ □:□□ □

عليه عبر الهاتف فعاد يذكرها بخصالها الحميدة وجمالها وثقافتها وأن الزواج قسمة ونصيب، كما أن فترة صداقتهما كانت سعيدة، ونصحها بنسيانه والانتباه للفرص القادمة حتى لا تهدر الكثير من الوقت في شقاء وحسرة. «جمال الأنثى ينبع من داخلها، ولذلك يفترض أن تصفي روحك ليشرق وجهك وربنا يفتحها عليك ويرزقك بأحسن منه.» خفف من نبرة صوته وهو يكرر عليها فوات الأوان، ويذكرها بأن أية محاولة منها ستكون نتيجتها التخريب، وأنه بالطبع لن يشاركها في هذا المسعى.

«يمكن أن يكون أي واحد آخر أحسن منه، ولكننا كنا أسعد حبيبين ولم أتصور أبداً خيانته هذه، لأنه كان مطواعاً سعيداً..» سكتت وكأنها لا تريد مدحه، وفكر هو أن يحول النقاش إلى جهة أخرى.

«ربما كان مطواعاً وربما كنت تسيطري عليه ويطاوعك لينال رغباته، ولا أستغرب أن يكون العكس صحيح أيضاً، الفارق الآن أنه سيحقق رغباته مع الزوجة قريباً، وأنت فقدت السيطرة على رغباتك والسلطة عليه إلى حين أن تجدي عريس المستقبل وتصبحان مطاوعين أو متسلطين على بعضكما البعض.»

«عمو فهمت كلامك ولم أفهم مقصدك.»

«مقصدي أن أوضح لك بعض مسببات الحزن والأسى الخفية. حين تنتهي علاقة ما بين ذكر وأنثى، فبالإضافة إلى زوال وافتقاد عوامل التعود والمساعدة والدعم المتبادل والمتعة، هناك ترابط بين فعل الجنس وشعور التسلط من قبل طرف على الآخر وهذا أيضاً سيُفتقد. حين يختل توازن التسلط الجنسي تتعرض العلاقة إلى خطر الانفصام. عندما تكون هذه العلاقة بين صديقين يمكن أن تنتهي بذهاب كل إلى حاله، وفي حالة الزوجين قد تأخذ العلاقة خطوط أخرى، مثل الفتور أو الطلاق أو الصراع الدائم أو الاعتداء الجسدي لفرض السلطة الجنسية، أو بالطبع تمنع الأنثى أو القيام بدورها بروتينية مملة كعمل إنتقامي. المهم هنا أن صاحب السلطة الجسدية أو المعنوية أو المالية، غالباً، وليس دوماً، يكون هو المتسلط..»

«لكن علاقتنا لم يكن بها تسلط جنسي وإنما تجانس وتفاهم..»

□□□ □□□□□□ .indd 130 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«لو كانت كما تقولين لما انتهت كما نرى، هناك أحاسيس ربما غير ملموسة، وهنا الفارق بين علاقة الصداقة التي تنتهي بسلام نسبي وبدون محاكم وخسائر، وبين علاقة الزواج بدون مقدمات صداقة، والتي قد تنتهي بتوافق أو بقبول تسلط طرف على الآخر أو بالفراق والطلاق.. الثابت أنه لا تجانس في الجنس، وصاحب السلطة يتسلط حتى ولو بدا للعامة والخاصة أليفاً. هذا ينطبق على الزعماء والسياسيين والأغنياء والشيوخ والقساوسة وكل أصحاب المناصب سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً.»

«طبعاً في مجتمعنا العربي كل الذين ذكرتهم من الذكور، فلا توجد لدينا زعيمات أو مليونيرات، والإناث ينظر إليهن على الدوام كمفعول به متسلط عليه مركون جانباً مُطلق مضروب..»

«لا تسرحي كثيراً في هذا الدور، فغالبية النساء العربيات يحكمن بأسلوب أو بآخر من خلف الستار.»

«ربما أنت على صواب وهذا يعني أنني فشلت تماماً في السيطرة أو حتى التوجيه ويبدو أنني سأفشل أيضاً في الانتقام.»

أنهى المكالمة معها بعد إسماعها الكثير من الإطراء، ثم جلس يتأمل ويفكر فيما قاله لها حول التسلط الجنسي. دار في ذهنه وجود علاقة بين الجنس وكل من السعادة والشقاء، والإجرام والإرهاب وحتى الدكتاتورية وذلك على مر التاريخ.. تذكر ما طالعه من تقارير بعد اغتيال أسامة بن لادن، فقد عثروا في مقره على أفلام جنس. أما الجنس الحوري فهو في صميم التعبئة للإرهاب المتدين، وإرهابي مدينة نيس الذي دهس الناس بشاحنة وكذلك من سبقوه من إرهابيين في أوروبا كانت هواتفهم تعج بالجنس. تذكر أيضاً إشارة دراسات قديمة طالعها أن رؤية هتلر في الشارع كانت تثير نساء وفتيات ألمانيا جنسيا كونه يملك السلطة المطلقة، والإناث تحب القوي وتستجيب له بسهوله بل وتتمناه.. كل زعيم عبر التاريخ استغل سلطته جنسياً سواء بالحلال أو بالحرام، إلا الزعماء الذين لديهم زوجات أقوى منهم أو لديهم قصور جنسي.

□□□ □□□□□□ .indd 131 □□/□□/□□□□ □:□□ □

عقد النكاح

استمع إلى أصدقاء العريس وهم يسألونه عن استعداده للدخلة، شاركهم المزاح وكان ربما الوحيد بينهم الذي يعرف أن العريس صاحب تجربة فعليه وليس بحاجة للنصائح. سرح بذهنه حول صديقة العريس المكلومة وفكر في العروس والبنات العربيات إجمالاً. شعر ببعض الأسى على الفتيات اللواتي يدخلن سن المراهقة ويتعمقن فيها وخصوصاً اللواتي يتجاوزن هذه المرحلة من دون أية تجربة جنسية أو زواج. «العربيات أشجع من غيرهن ويملكن قوة تحمل يقاومن بها نداء الطبيعة، سواء كان ذلك بفعل التربية والضغط والتهديد أو لأسباب أخرى، فالنتيجة أن صمودهن خارق للطبيعة ولا يتحمله أي ذكر.» قال لذاته وهو يجاري حديث الشباب بإيماءات وابتسامات. لمعت في ذهنه خاطرة أن بعض الفتيات ربما يرفهن عن أنفسهن أيضاً مثل الشباب غير المتزوجين بممارسة العادة السرية، لكنه ظن أن من يمارسن ذلك قلة كما أنه لا يروي غليلهن ويشبع خيالهن مثل الجماع الحقيقي المشحون بالحب والعاطفة. ضمن هذه الرؤية فإن صديقة العريس قد نالت ما أرضاها أثناء فترة التحابب، لكنها الآن تعتقد أنها من أتعس المخلوقات. لو وضعت نفسها في مكان فتاة بين العشرين والثلاثين مثلاً ولا تملك تجربة جنسيه، لانخفض شعورها بالتعاسة درجات.

في مكان آخر في بيت أهل العريس كانت العروس هي الأخرى تستمع لنصائح نسوية بعد أن تعرضت لجس نبض واستشعارهن أنها لن تردعهن لأن الظرف يتطلب من العروس إدعاء البراءة والجهل وقلة التجربة، حتى لو كانت أبحرت عبر الإنترنت في تفاصيل الأمر عبر الصوت والكلمة والصورة، أو سمعت من صديقة تزوجت قبلها كل ما تود سماعه.

□□□ □□□□□□ .indd 132 □□/□□/□□□□ □:□□ □

«مئات وربما الآف الناس من الأقارب والجيران ومن صادفوا موكب العرس أصبحوا يعرفون أن العرسان سيمارسون الجنس الليلة، ولا يوجد من يشعر بالإحراج، بل العريس والعروس يتلقون النصائح بهذا الصدد، وغداً سيبارك لهما الجمهور نجاح المهمة..» قال لذاته وهو سارح عما حوله من أحاديث الشباب، «..وكل ذلك بفضل كلمة من شيخ أو مأذون أو كاهن أو مسؤول مدني يمنحهما حق النكاح ويقدم لهما ورقة عقد يحدد شروط النكح والمهر المقدم والمؤخر إذا فشلت التجربة.» هذا إذاً ما يدفع البنات للبحث عن الزواج، وما يجعل غالبيتهن العظمى ترضى بأي زوج يتقدم لطلب يدها من أهلها حتى لو كانت لا تعرفه ناهيك عن حبها له، فالهدف الأول هو الانتقال من حنان الأهل إلى حضن زوج تأمل أن يعطيها ما كانت تحلم به طوال سنوات مراهقتها وشبابها، المرور بتجربة جنسية رسمية تسد حاجتها الجسدية ويُرجى منها التطور لحياة زوجية عاطفية. في مرحلة العزوبية تعطي الفتاة العربية حنانها لأطفال أقاربها ولأرحامها وأيضا لكبار السن الذين يبدوا عليهم الوقار، أما إذا أطرى عليها شاب غريب ببعض الكلمات فنصيبه التجاهل أو التوبيخ. في المقابل تُغرم البنات في مغنيين أو ممثلين خصوصاً إذا كانوا وسيمين غير متزوجين ويحلمن بفرصة معهم ويطربن لأغاني الغرام وكأنها تُغنى لهن خصيصاً وتهطل دموعهن تعاطفاً مع تمثيلهم. هكذا تفرغ أغلبية بنات العرب طاقاتهن العاطفية قبل عقد الزواج، ويبقين محرومات علناً ورسمياً من أي تجارب عاطفية حقيقية، إلا بالطبع العلاقات السرية، لأن أي صداقة علنية بين شاب وفتاة ستعني ضياع فرصة الأنثى في الزواج، وذلك بعكس واقع الفتيات في العالم الغربي حيث تفخر الفتاة بكل علاقة حتى تجد من يناسبها للزواج.

المشكلة العاطفية للعربية أسوأ من غيرها نظراً لطول الفترة المتوقع فيها العثور على الزوج. بالنسبة للرجال المسلمين فهم يرجون بالعموم الزواج من صغيرات السن أسوة بالسلف الصالح، وهذا يجعل الفتاة تتوقع الزواج منذ انتظام دورتها الشهرية، وكلما امتد بها العمر تتأزم حياتها، ويتحول الأمر إلى شبه كارثي إذا بلغت أواسط العشرينات من دون أن يطلبها ابن الحلال، وتتنفس الصعداء إذا جاء نصيبها قبل

□□□ □□□□□□ .indd 133 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الثلاثين لأنها بعد هذه السن تصبح عاقراً في نظر الأزواج وبالتالي تضمحل فرصها ويصبح طموحها العثور على زوج كبير السن لا يريدٍ الإنجاب. في هذا المطب العربي وقعت صديقة العريس، صاحبته سرياً عن الأهل لفترة طويلة، فتركها في النهاية وهاهو يتزوج من أخرى أصغر منها بينما هي لا تستطيع حتى الاستمتاع بالذكريات لأنها ناقمة عليه وعلى ذاتها وآسفه على الفرص التي قد تكون ضاعت منها أثناء فترة صداقته.

□□□ □□□□□□ .indd 134 □□/□□/□□□□ □:□□ □

التعساء

□□□ □□□□□□ .indd 135 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الطلاق

كان لقائهن الأول قبل ثلاثة عقود في الجامعة، ومنذ ذلك الحين حافظن على التواصل واجتمعن في العديد من المناسبات، آخرها حفلة زفاف ابن إحداهن حيث كررن في بضعة أيام اللقاءات الجانبية، يتجاذبن الأحاديث وينفثن دخان الأرجيلة. كن على اطلاع مفصل لمجرى حياة بعضهن البعض، وشاءت الصدف أن يتشابهن في المصير كنتيجة لتشبب الرجال وفياعتهم وتسلطهم جنسياً. ثلاثتهن تزوجن وأنجبن ومررن بتجارب خيانة من الأزواج.

الأولى، تزوجت من رجل أعمال يقيم في أكبر بلد خليجي، وفتح الله عليه باب الرزق ولكنه أقفل باب الإنجاب. بعد طول عناء ومحاولات رزقهما الله بولد ثم أقفل الباب مجدداً. تحمل الزوج لسنوات إضافية أن تستكمل متعته وتزين حياته بالمزيد من البنين بعد أن تكاثر رزقه من المال، فقرر أن يتزوج من امرأة محلية وفتح لها بيت جديد فرزقهم الله ولد وبنت ولازالت الفرص مشرعة للمزيد من ورثة المال. الزوجة الأولى قررت أن تعيش مع ولدها الذي بلغ منتصف دراسته الجامعية الآن، وتحافظ على علاقة اجتماعية تبدو طبيعية مع الزوج، لكنها لا تقاسمه الفراش، كما تروي لصديقتيها، ولا تطالب بالطلاق لأنها لا تعرف ماذا ستفعل وهي مطلقة ومقطوعة الرزق وهزيلة الدعم العائلي، ولا تريد بالطبع تعكير علاقة الإبن مع الأب حتى يحتفظ ولدها بفرص الورثة لمال أبيه.

الصديقة الثانية لم تعاني من قلة الإنجاب ولم ينقصها الجمال هي الأخرى، لكن زوجها لم يكتف بها. أصبحت تكتشف شعراً أشقر في سريرها وعلى مشطها، ثم صارَت ترى أشكال وألوان من النساء يدخلن البيت كصديقات لزوجها، وتطور الأمر لمشاهدته يمارس الجنس في

□□□ □□□□□□ .indd 136 □□/□□/□□□□ □:□□ □

سرير الزوجية. أخذت تسأل وتستشير وتستجير حتى توصلت إلى نتيجة وجود عمل سحري في بيتها. فتشت عليه ووجدته على التسريحة، فقيل لها أن تفتحه وتقرأه بالمقلوب وتلقي به في البحر. دخلت في الخليج حتى بلغ الماء وسطها وصارت تقرأ من تحت لفوق، ولم يكن النص منسجماً حتى بالمطالعة الصحيحة، لكنها استنتجت منه من يلعن زواجها ويطالب الجن بإغواء زوجها. فشت غلها في الورقة والنص تمزيقاً ومضغاً وبصقاً في الماء. مرت الأيام والشهور والحال على سابقه، نساء يدخلن ويخرجن بيتها. حاولت زجره فأخبرها أنه لن يتغير وعليها إما الإذعان أو الخروج إلى بيت أهلها. تركت له أصغر بلد خليجي وعادت إلى أهلها. في اللقاء الأخير للصديقات كانت بالكاد تتمالك أعصابها، لا تترك لأحد مجال للحديث، تعلق على أحاديث الآخرين قبل أن ينتهوا من السرد، كثيرة الزينة وغير مكترثه بما يظهر من جسدها وهي تسحب على الأرجيلة.

الصديقة الثالثة تحجبت بعد الجامعة على عكس صديقتيها، وتزوجت هي الأخرى من أحد أبناء بلدها وعاشوا في الغربة. أنجبا بنين وبنات وأقاما شركة صغيرة جلبت لهما الرزق في حدود معقولة واستمرت سعادتهما حتى اتفقا على زيارة أكبر بلد عربي سكاناً. لم تكن تلك الإجازة الأولى لهما في عاصمة الضجيج، لكنهما تعرفا هذه المرة على أم وابنتها. توطدت العلاقة مع الزوج وصارت الزوجة حين تسمع أم البنت تطلب من الله أن يزوج ابنتها من الزوج، تظن أنها تمزح خصوصاً مع اختلاف اللهجة والطباع. استجاب الله لدعاء الأم، ولم يخبر الزوج زوجته أنه يريد الزواج من البنت، لكنها طالعت رسالة على هاتفه اتضح منها أن موعد الزواج بعد يومين، فما كان منها إلاّ إعلان غضبها ودفعها كبريائها للانسحاب والسفر تاركة الزوج ليعقد قرانه ويعود بعد شهر العسل مع زوجته الجديدة إلى بيت الزوجية القديم. هكذا قررت أن تخلعه ولم تستجب لأي واسطه من أهلها أو أهله بأن ما فعله حلال ومن حقه. خربت الشركة وضاع مصدر الرزق، ونشطت الزوجة تجارياً وأنشأت بيتاً تعيش فيه مع أولادها، وفشل الزوج في حياته الزوجية الجديدة فترك الزوجه الثانية تعود لأهلها وتزوج بثالثة ثم فشل وعاد يسكن بالقرب من بيت الزوجة الأولى ليكون قريباً من أولاده، لكن الخسائر والديون والمحاكم أوصلته إلى المحتوم.

□□□ □□□□□□ .indd 137 □□/□□/□□□□ □:□□ □

تعيسة الزوج

لا زالت تُظهر أصلها العائلي كلما تم التعريف بها لآخرين، فهي من عائلة اشتهرت في السياسة قبل ثمانية عقود سلباً وإيجابياً ولم يعد هناك اليوم سوى الاسم وبعض قطع الأراضي التي تناقلها الورثة ويريدون بيع بعضها الآن. يبدو من مظهرها الحالي جمالا سابقاً بهت من كثرة ما أصابها من نكسات أوصلتها إلى اللجوء للتدريس الخاص في البيوت لتغطية حاجتها.

تزوجت من ابن بلدها وعاشا لسنوات في بيت زوجية منفتح، في بلد منغلق. أنجبا خلالها إبنة جميلة ذكية. تقول الأم إنها لا تعرف سبباً لما فعله زوجها فجأة، حيث أخبرها أنه مسافر بضعة أيام لزيارة أهله، لكنه خرج ولم يصل إلى الأهل أو يعد إلى البيت أو يتصل بالزوجة أو أي من المعارف حتى عم القلق ولم تنجح محاولات العثور عليه. أصبح عليها كسب رزقها وتربية البنت بدون أي رصيد سابق. لم تفكر في زواج جديد رغم مرور السنوات، كما أنها لم تطلب الطلاق أو الانعتاق فمصير الزوج غير معروف.

تفوقت البنت وانتقلت للدراسة الجامعية في بلد غني منفتح مجاور. ذات يوم اتصل بالزوجة أحد المعارف وأخبرها أنه شاهد زوجها في ذلك البلد المجاور. اختلطت مشاعرها وطلبت من أصدقاء قدامى تحري الأمر، فأكدوا لها صحة المعلومة وأفادوها أنه متزوج من محلية ووضعه الاقتصادي في أحسن حال. غمرتها التعاسة الناتجة عن الاستغراب والاستهجان، لكن ظروفها الاقتصادية فرضت عليها في النهاية تقبل أن تعيش ابنته في بيته مع زوجة أبيها توفيراً للمصاريف. لم ينقض عام كامل على هذه التطورات حتى مرض الأب ومات، فأصرت زوجته أن تغادر البنت بيت أبيها قبل أن يدفن، وهددتها باللجوء إلى الشرطة

□□□ □□□□□□ .indd 138 □□/□□/□□□□ □:□□ □

لطردها. عادت الأم لتحمل مصاريف ابنتها وأوصلتها إلى بر الأمان إذ أنهت دراستها وعادت لمقر إقامة والدتها وباشرت عملاً في مجال تخصصها، ولم ينقض الكثير من الوقت حتى تمت خطبتها وتستعد لإتمام الزواج في القريب.

□□□ □□□□□□ .indd 139 □□/□□/□□□□ □:□□ □

تعيسة الجهل

لا تبدو أنها أنهت أربعة عقود من عمرها، ملامحها رقيقة، بشرتها بيضاء، ذات عيون عسلية واسعة ويمكن بسهولة تصور كم كانت جميلة وهي في الخامسة عشر حين تقدم ابن عمها لطلب يدها. لم تمانع آنذاك وقالت لاحقاً إنها ظنت الزواج لبس كعب عالي وفساتين حلوة، فلم يخبرها أحد بغير ذلك. هكذا اقنعوا القاضي بأنها غير قاصر وأجابت بنعم حين استشيرت وفرحت بالهدايا وطقوس العرس حتى حانت ليلة الزفاف مع ابن العم الذي يكبرها بأكثر من عقد من العمر.

بعد مباركة الصباحية افتقدوها وبحثوا عنها لثلاثة أيام ظنت خالتها أنها كافية لتهدئة الأهل، فأعادتها بسيارة أجرة . قبل أن تصل إلى البيت شاهدها العريس فأمسك بها وصار ينادي على عمه وأخوتها أنه ضبطها وأعادها. لبوا النداء وهم لا يرون غير السواد أمام عيونهم، وأعطى احدهم والدها بندقية خرطوش محشوة وسط أصوات حماية العرض.. صرخت الخالة أنها كانت في بيتها طوال المدة ولم يسمعها أحد. لم يجد الأب مناصاً من التصويب تجاه ابنته التي يمسك زوجها بذراعها، لم تخرج أي رصاصة، فظن متحمس أن أصبع الأب أضعف من ضغط الزناد، وقف بجانبه وصوب على الأسيرة وضغط فوق أصبع الأب فهتكت عشرات الرصاصات الصغيرة ذراع البنت وكسرت ضلعين وترك ابن عمها الذراع الآخر فخرت تسبح في دمائها.

بعد ربع قرن من الزمان كانت تعايش مشكلتها بأسلوب ميكانيكي، ففي كل حديث تناقش كلفة اليد الإصطناعية وما توصل إليه العلم في بلدان أخرى بهذا المجال مثل زرع جلد بملمس طبيعي فوق اليد البلاستيكية، وهي تلم بالكلفة لهذا التعديل، وتقول إن صيانة يدها الحالية تكلف حوالي

□□□ □□□□□□ .indd 140 □□/□□/□□□□ □:□□ □

عشرة آلاف دولار سنوياً. لم تتزوج بالطبع بعد تجربة ليلة الزفاف التي دفعتها للهروب حتى لا يتكرر الحدث. «ماذا حدث للجناة الذين تسببوا بذلك ؟» همس جليس غير ملم بكل التفاصيل سائلاً صديق مشترك.

«أخذ ثلاثة شهور مع وقف التنفيذ.» جاء الجواب من الفم إلى الآذن. دار في ذهن المتلقي: ماذا عن المأذون الذي سمح بالزواج، والزوج الذي اغتصب، والمتحمس الذي ضغط على إصبع الأب؟؟

□□□ □□□□□□ .indd 141 □□/□□/□□□□ □:□□ □

غني وتعيس

سرح ذهنه لوهلة واستعاد شريط حياته بلمح البصر. كان جالساً في مكتبه، الذي تحيط به مكاتب السكرتارية وبعض مدراء شركته، حين جذبه عنوان قصة حقيقية وهو يتصفح الإنترنت: زوجان يتبرعان بنفقات العرس وقيمة الهدايا لقرية في جيبوتي حيث أقاما بيوتاً وحفرا بئر ماء وأمنا مولد كهرباء لمدرسة القرية مدقعة الفقر. تذكر واقعه الشخصي وهو صبي في إحدى مخيمات لبنان، وشاهد في الشريط الذهني تطورات حياته حتى أصبح مليونيرا، بل شبه ملياردير. تأمل ماذا كانت كلفة زواج ابنه الوحيد قبل شهر رمضان ستفعل في قرى عربية فقيرة أو مخيمات لاجئين أصبحت تنتشر في طول وعرض الأصقاع العربية والدول المحيطة. تذكر كلفة العرس التي فاقت نصف مليون دولار، وهو يقر في ذاته أنها أنفقت على ضيوف لا يعرف جلهم ويندر بينهم من يحترمه لشخصه، أراد هو التباهي بماله وبولده وأرادوا هم تملقه.

أصبح سرحان ذهنه يتكرر بعد ذلك العرس، وهاهي قصة الزوجين الكريمين تذكره بما يحب مسحه من ذهنه، فحين عاد من العرس إلى البلد المضيف حيث شركته وأعماله تم احتجازه وسجنه طوال شهر رمضان بتهمة الرشوة ريثما تمكن من جمع قيمة الكفالة بعدة مئات الملايين من العملة المحلية. عاد لعمله ومكتبه بانتظار حكم القضاء أو التوصل لحل آخر. في السجن حفظ نصف القرآن وتعلم السرحان والتأمل لكنه لم يقرر تغيير مسار حياته أو تحديد أهداف جديدة تعطيه سعادة مثل تلك التي حلت على من استبدلوا تكاليف عرسهم بإسعاد أفقر فقراء العالم.

هو مسلم المولد والثقافة، لا يتعبد ولا يتورع عن فعل بعض المحظورات، لكنه ظن أن الرعاية الإلهية حافظت على حياة ولده وأن الله أراد له الزواج ولم يهديه لإنفاق المال على فقراء. قبل سنوات

□□□ □□□□□□ .indd 142 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ضرب ولده هذا في الحواجز الإسمنتية سيارة ثمنها ٤٠٠ ألف دولار فدمرها وضاعت له عين وأصيب بجرح غائر في الوجه بالإضافة لضلعين وبعض الكسور الأخرى، سقط هاتفه من يده فأراد التقاطه من أرضية السيارة فكان ما هو مقدر. بعد الحادث والزواج للابن وتعرضه هو للسجن تكرر الحادث ذاته، ولكن هذه المرة مع أخته التي لم يحالفها حظ الإبن فانتقلت إلى الرفيق الأعلى وهي تتحدث على هاتفها الذكي.

دخل سكرتيره المكتب قاطعاً عليه مشاهدة الشريط المشوش، أخذ يوقع الأوراق بعد مراجعتها من دون تركيز، تراءى له بحر بيروت ويخته الراسي في الميناء ينتظر حفلاته الخاصة التي لم تحضر الزوجة أي منها طوال تلك السنوات. أكمل التوقيع وقد غص قلبه حين فطن لمنعه من السفر وما ينتظره في المجهول.

□□□ □□□□□□ .indd 143 □□/□□/□□□□ □:□□ □

تعيسات غزة

جلست أمام دفترها وفي يدها قلم، لكنها لم تكتب وبدت له شاردة الذهن. سألها لماذا لم تحمل معها كمبيوترها الخاص من غزة. تنهدت قائلة إنها بالكاد تمكنت من الخروج للزيارة، ولو حملت الكمبيوتر لتحتم على حماس وعلى إسرائيل فحصه لأيام. تبسم لها، وكان يعرف المصاعب ولكنه أراد إخراجها عن سكونها واستفسر منها عما ستكتب بالقلم.

«قصص بلاوي أخاف إلافصاح عنها وأحيانا اشمئز من مجرد التفكير فيها.» ظن أنها تقصد الحروب على غزة والويلات التي طالت سكانها. هدأ من روعها قليلاً وباشر يتحدث عن تجارب الشعوب في الحرب، فقاطعته: «لا أخاف من الكتابة في هذا المجال.» صمتت وصمت يفكر فيما تفكر. «أريد الكتابة عن ظلم النساء في غزة.» طلب منها إخباره بما تريد وسيتفق معها على الأسلوب المناسب للتصرف. «سأخبرك من الآخر وبالموجز لأرى ردة فعلك.» وافقها الرأي وفتح هاتفه الذكي ليسجل فيه بعض الملاحظات.

«استمعت لجارنا العزيز، لكننا لن نُعرفه كجار حتى لا يعرف من أخبر عن الأمر..» أكد لها ذلك بإيماءة من رأسه فأكملت: «.. قال لصديق له أن زوجة الشهيد فلان جميلة بالفعل ونفسه فيها ويود التقدم لها قبل أن يُزوجوها لأخ الشهيد الأصغر. ذكره الصديق أنه متزوج من أربعة، ثلاثة منهن زوجات شهداء، وأضاف صديقه: ألا يكفيك تلك الحسنات والعمل الجليل بالستر على الزوجات.» نظرت إلى المستمع لتقيم ردة فعله الأولي عما سمع للآن فتصنع الهدوء. أكملت: «ضحك الاثنان على ذلك التعليق وقال الجار لصديقة إن المعضلة هي أي واحدة من الزوجات الأربعة يطلق الآن ليتقدم للزواج من جديد.. وعادا للضحك. نصحه الجار أن يطلق الأقدم منهن، فجائه الجواب باستحالة

□□□ □□□□□□ .indd 144 □□/□□/□□□□ □:□□ □

ذلك لأنها أم الأولاد وقد كبروا ولا يريد الصدام معهم. في النهاية اتفقا على طلاق الأقل جمالاً من الثلاثة الأخريات.»

«من هو هذا الجار؟» سألها ثم غير سؤاله بعد أن نظر إليها. «ما هو مركزه في المجتمع، ولماذا لم يتنبه أحد لما يفعل؟»

«قائد ميداني وشيخ في حركة حماس..» قالت وهي تنظر للدفتر أمامها «.. أما سؤالك الآخر فهو مضحك بالفعل.. الجميع تنبهوا لذلك والرجل ليس القائد والمسئول الوحيد الذي يفعل هذا بل هناك إشاعات أنهم يتعمدون إرسال أزواج الجميلات من الكوادر لعمليات استشهادية ليكسبوا حسنات الستر على زوجاتهم.»

«إذا افترضنا أن نساء غزة معظمهن جميلات وبالتالي فهذه مصادفة، فهل تخبريني عن مصير الزوجات لو لم يتقدم لهن المسئولين؟»

«الأفضل أن يجدوا لهن أعمالاً ووظائف حتى يكسبن الوقت والمال ويدعمن عائلاتهن، ومن ثم قد تتوفر لهن فرص زواج إنساني محترم وليس بهذه الطريقة..» نظرت إليه بشيء من العتب ثم أخبرته: حين لا يتقدم مسئول، فإنهم يجبرون الأخ الأصغر على الزواج من أرملة أخيه وهذا ليس عادلاً لأي منهما.

مر في ذهنه ما طالعه عن ثورات وحروب وحقيقةٍ أن الإناث هن الضحايا على الدوام. في حالات الثورة يصبحن صيداً، وفي حالات الغزو يغتصبن ويسبين، وفي حالات الفقر والجوع الناتج عن الحروب يضطررن لبيع أجسادهن .. هل حلل الإسلام تعدد الزوجات كحل لنقص الرجال في أزمنة الحرب؟ لم تعجبه هذه الخاطرة كونها مهينة لإنسانية المرأة. قبل الإسلام كان العربي يتزوج واحدة فقط ولكنه حر في زيارة بيوت صاحبات الرايات، وجاء الإسلام بمنع الزنا لمنع اختلاط الأنساب ولكنه حلل زواج الأربعة وطلاقهن حتى لا ينفر الرجال من الدين الجديد.

□□□ □□□□□□ .indd 145 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الجني

«هس هس لا ترفعوا صوتكم حتى لا يهربون.» نظرت لمن حولها وقد صمتوا، ثم نظرت في الفراغ. «هاهم قد وصلوا، أترونهم؟» سألت بصوت منخفض من يجلسون معها من الأهل الذين نظروا الى بعضهم ثم فتشوا بأنظارهم عن الذين وصلوا. رأت في عيونهم أنهم لم يرونهم: «أنتم عميان هاهم ينظرون إليكم.»

«كيف حالكم؟» سألت أمها زوار الخفاء لطمأنة البنت، لعل وعسى أن تسمع منهم إجابة أو تغير البنت نظرتها للأمور. «لا أسمع ردهم يا ابنتي هل قالوا شيئاً؟»

«لم يتحدثوا إليكم بعد، ولكنهم يلعبون بالكرة في الممر، ألا ترونهم؟ ألا تسمعون صوت الارتطام؟» اصفرت وجوه بعض أقاربها الذين تذكروا ما كانوا يسمعونه في بيتهم القديم من أصوات ارتطام الكرة بالأرض وظنوا أنها أصوات قذائف، لكن بعضهم شاهد كرة غريبة تتدحرج ثم تختفي فعرفوا أن الحرب بريئة. أغلبية العائلة نجمها خفيف وتعتقد بوجود الجن والشياطين وظهورهم ليلاً، لهذا يكثرون من الإضاءة في كل الأماكن كلما سمحت الظروف وتوفرت الطاقة. لكن أي منهم لم تصل به الهواجس مثلها، فهي تراهم ويرونها وتهامسهم، وتنفذ طلباتهم مثل إلقاء كل الأثاث خارج البيت والاعتكاف بداخله فارغاً لإفساح المجال لهم. توصلوا إلى شبه قرار أنها مركوبة من أحد الجن، فاتفقوا على إحضار الشيخ شحده الذي يقال أن والدته كانت عاقراً ثم شحدته من الله فاستجاب لها بهذا الصبي الذي كبر وأصبح شيخاً له بركات منها طرد الجن.

حضر الشيخ شحده للبيت فوجدها في حالة شبه طبيعية وتحتم عليه تشخيصها دون تلبس. اقتنعت بالتجاوب وتمددت على الأريكة بعد

□□□ □□□□□□ .indd 146 □□/□□/□□□□ □:□□ □

أن غيرت حجابها بنقاب بناء على طلب الشيخ. ارتفع صوت تلاوة القرآن، هبط الشيخ برأسه قرب أذنها.. توقف عن التلاوة وباشر بالتكبير، ثم طالب الساكن بالخروج. لم يسمع إجابة ولم يعرف أحد ردة فعل صاحبة السكن لأن البرقع شامل كامل، لكن جسدها اهتز. قال الشيخ الحمد لله، وظن زوجها أنها اهتزت من شدة الضحك المكتوم.

أقنعوها أن الجني غادرها، فطلبت منهم أن يوزعوا أطفالها على العائلة لأنها زهقت منهم ومن انعدام تربيتهم. شرحوا لها عدمية رأيها ففي النهاية لا يريد أي منهم تحمل مسئولية كهذه، فسكتت لفترة تخللتها عدة شجارات مع الزوج وتبادل لكمات وشتائم. فكرت ملياً في وضعها وقررت الهروب من الجن والأنس والزوج والأطفال والأهل.. ليس إلى الجنة، لكن بالبحث عن بلد يستقبلها كمهاجرة، أو لاجئة، أو حتى سائحة متخلفة، المهم هو استنشاق الوحدانية في مكان جديد.

□□□ □□□□□□ .indd 147 □□/□□/□□□□ □:□□ □

أم خويصة

جلست تصرخ وترمي بالرمال إلى أعلى فتهبط على رأسها، حاولوا ردعها بالكلام وإمساك يديها، لكن من دون جدوى، حتى طلب منهم شيخ البلدة أن يتركوها تتعامل مع حزنها كيفما ترى. قبل خمسة أشهر مات ولدها غرقاً في البحر، واليوم ودعت إبنها المتبقي في قضية ثأر كان من الممكن درءها بسهولة، ولم يتبق لها سوى إبنة.

ذهب محمد مع قطيع غنم وجمل واحد إلى البحر بغرض تغسيل دوابه. حمل معه على ظهر الجمل إلى الشاطئ أكياس مليئة بالعشب والتبن ليغري الغنم بالبقاء في بقعة واحدة بينما يقبض عليها واحدة تلو الأخرى ويجرها للماء، يغطسها ويفركها ثم يخلي سبيلها فتركض إلى دائرة الطعام.

انتهى من الغنم، وكان قد أنهكه العمل، لكنه قرر أن يغسل الجمل أيضاً. أمسك برسنه وسار الجمل بهدوء من خلفه حتى وصل الماء إلى كتف محمد وبطن الجمل. انتقل محمد إلى الخلف ليدفع بالدابة إلى الأمام ليسهل عليه تنظيفها، لكن الجمل رفع رقبته إلى الأعلى ورفض التقدم إلى البحر المفتوح أمام ناظريه. عاد محمد إلى المقدمة وحاول ترقيد الجمل لتغمره المياه، لكن الأخير رفض الانصياع. قرر محمد أن يجر الدابة للأمام، فأعطى البحر ظهره ليحافظ على مواجهة سفينة الصحراء العين بالعين خوفاً من غدر الدابة به. قال ولده الصغير الذي كان يراقب المجريات من مكان آمن على الشاطئ، أن موجة بحر فاجأت والده من الخلف فرمته تحت أقدام الجمل الذي يبدو أنه ارتعب وداس على محمد الذي لم يقم من رميته.

بعد أربعة أشهر كان قريب من العائلة يقود شاحنته عبر قرية مجاورة، فدهس أحد سكانها. لم يتوقف السائق فقد تأكد أن الضحية قد

□□□ □□□□□□ .indd 148 □□/□□/□□□□ □:□□ □

قُتل تحت العجلات. خاف من ردة الفعل الفورية وواصل القيادة حتى وصل القرية، واتجه إلى كبير العائلة وأبلغه ما حدث معه. في المساء تشاور القوم لكن كبيرهم رفض فكرة الإعتراف بالجرم وإرسال وفد إلى أهل القتيل لأخذ عطوة والاستعداد لإيجاد حل بعد أن تهدأ النفوس. لم تكن الشاحنات كثيرة الانتشار آنذاك، وتعرف أهل المجني عليه بسهولة على الجاني الذي بالطبع أخذ استعداده وتوخى الحذر في تحركاته.

طوال شهر كامل راقب أحد أقارب القتيل بلدة القاتل وحارتهم حتى جاءت الليلة المشئومة لمحمود أخ الغريق محمد. كان عائداً من الحقل بعد الغروب، فسمع من يناديه باسم عائلته واستجاب بنعم تلقائياً، ولم يفق إلا وبضعة ضربات قاتلة من شبرية قد انغرست في جسده. عندما وصل الخبر الى أمه تفجر حزنها المأساوي من جديد، وغارت عينيها أكثر في جمجمتها، فتعززِ تلقيها أم خويصة. عندما سمع زوجها بما حدث لولده انطلق مسلحاً بالدبوسة إلى بيت كبير العائلة لينتقم من سوء إدارته، ولكن هذا كان قد لاذ بالفرار حين سمع بعملية الثأر واستنتج أن قريبه سينتقم منه لموت ابنه.

□□□ □□□□□□ .indd 149 □□/□□/□□□□ □:□□ □

المجنونة

سكت الحلاق ولم يعد المقص يطقطق حول رأسه، ففتح عينيه ونظر إلى الأمام ليشاهد انعكاس لما يحدث في الشارع إذ ارتفع صوت انثى: «إيه مش عاجبكم يا خولات.» أبصر الناس تبتعد عن الرصيف وتواصل مسيرها على الشارع، وانطلقت أبواق سيارات، ثم مرت من أمام المحل رافعة تنورتها مظهرة عجيزتها بدون أن يتوقف لسانها عن الشتائم للناس. تشجع ملتح يقف في الجهة المقابلة من الشارع: «عيب عليكي يا بنت، إتقي الله.» أنزلت التنورة فغطت عجيزتها، ثم رفعت بكلتا يديها التنورة من الأمام لتواجه بما تحتها الرجل الملتحي.

«لا حول ولا قوة إلا بالله.» قال الحلاق.

«لماذا يهرب الجميع من مجالها ولا ينظر إليها إلا من هو في مأمن؟» سأل الزبون ذاته بصوت مسموع، فأبلغة الحلاق أن الناس كلهم يخافون المجانين والشراميط، وهذه تجمع الخصلتين. واصلت سيرها مبتعدة عن المحل وهي رافعة تنورتها وتتراجم السباب مع الشجاع الوحيد على الجهة الأخرى. «والله هذا رجل غير جبان، حاول أن يؤنبها ثم أصبح يكيل لها الشتائم بالمقابل.»

«لا يا أستاذ، هذا رجل غبي، لأنه يستفزها.» صمت الحلاق ونظر الزبون إلى وجهه في المرآة يحثه على التوضيح، فأكمل: «هل يعتقد أنها طبيعية وقد تستجيب لمواعظه؟»

«لكنه يحاول عمل الحد الأدني لدرء المنكر، وهو استعمال لسانه.»

«الحد الأدني يا أستاذ بقلبه، وليس بإثارتها، يمكنه الاتصال بالشرطة، وعليه أن يغض بنظره عما تعرضه عليه.» لاحظ الحلاق

□□□ □□□□□□ .indd 150 □□/□□/□□□□ □:□□ □

علامات استنكار على ملامح الزبون. «لو كانت صغيرة الحجم لهجم وأمثاله عليها وضربوها، ولكنها ضخمة وعدوانية ومجنونة أكيد، لذلك يرادحها من بعيد . . إنهم جبناء وأغبياء أيضاً.» كان الحلاق والزبون على معرفة طويلة وكثيراً ما يتناقشا في شؤون الحياة.

«أوكي فهمت من حديثك أنهم جبناء، ولكم لماذا تتهمهم بالغباء؟» سأل وهو يحني رأسه لموس الحلاق ينظف الشعر عن رقبته.

«عثرت اليوم في الإنترنت على دراسة جيدة عن غباء المتدينين.» استدار بالموس في يمينه ليهذب السالف الأيمن، بينما يثبت بيده اليسرى رأس الزبون. «ملخص الدراسة أن نسبة الإيمان لدى أغلبية البشر تصل إلى ٨٥ بالمائة، كلهم يؤمنون بالله واليوم الآخر والحساب والثواب وأن الله خلق سيدنا آدم أبو البشر..» لا جديد هنا ظن الزبون وهو صامت بينما التف الحلاق إلى الجهة اليسرى من وجهه. «.. لكن استطلاع ٣٠٠٠ عالم أمريكي وبريطاني هم الأشهر على الإطلاق أظهر أن أقل من خمسة بالمائة منهم يؤمنون بفكرة خلق آدم والبقية يؤمنون بنظرية التطور.»

«قصدك أنه كلما زاد العلم عند الإنسان زادت شكوكه وتساؤلاته وقل إيمانه!» قال الزبون وقد تحرر رأسه من يد الحلاق الذي باشر يرش الكولونيا على الرقبة والوجه ويوحي برأسه إلى صحة الاستنتاج. قبل أن يسأله أين عثر على هذه الدراسة ركض الناس على الرصيفين في اتجاه واحد تلاحقهم الحجارة والسباب.

«يا ريت عندنا الآن واحد من العلماء الأذكياء إياهم لينقذنا من هذه المجنونة.» قال زبون آخر كان ينتظر دوره ووقف ليجلس تحت يد الحلاق.

«للذكاء حدود في التعامل مع الأشياء، لكن الغباء لا حدود له.» قال الزبون الأول وقد أنقد الحلاق أجرته وأخذ يدرس الموقف إذا كان بوسعه الخروج للشارع من دون أن يصيبه حجر طائش.

□□□ □□□□□□ .indd 151 □□/□□/□□□□ □:□□ □

الفهرس

□□□ □□□□□□ .indd 152 □□/□□/□□□□ □:□□ □

□□□ □□□□□□ .indd 153 □□/□□/□□□□ □:□□ □